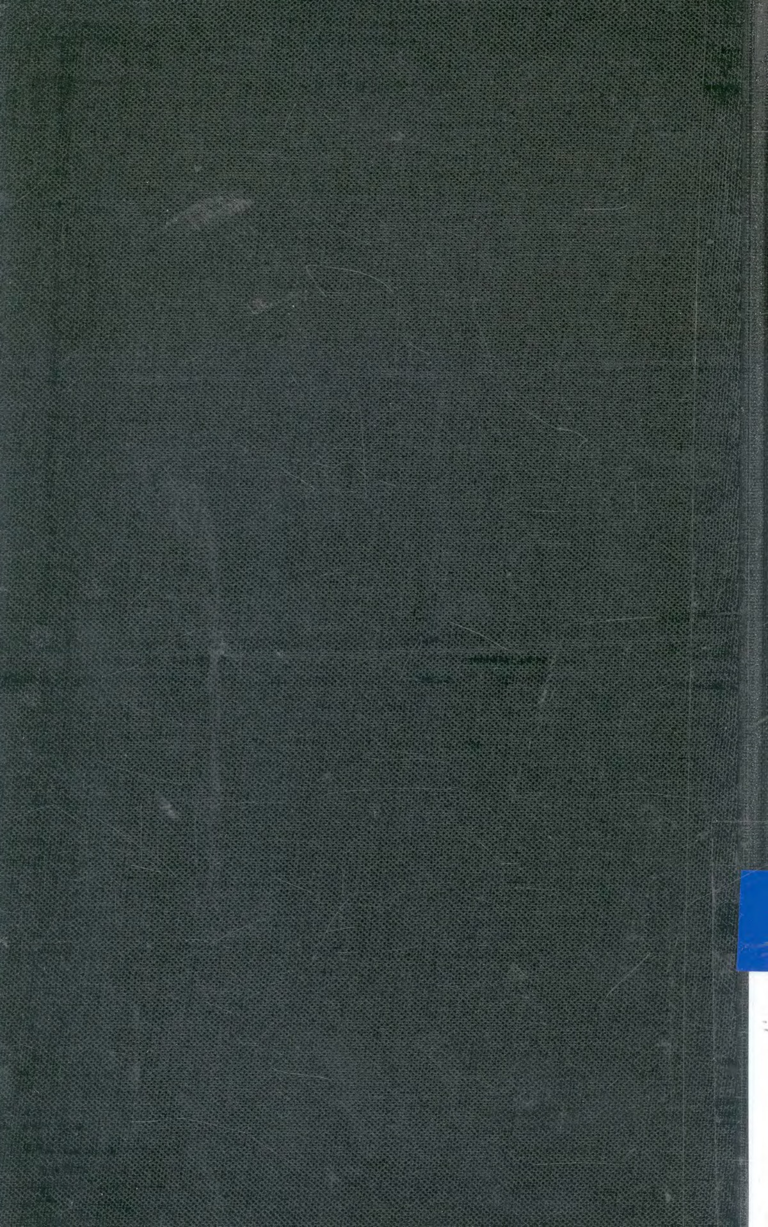




فى المرآة

مختار المرايا التى نشرت فى «السياسة الأسبوعية»

وطائفة من القطع الأدبية الأخرى جرى بها قلم محرّر المرآة

تُريك المَـرايا الخَلْقَ فيهنّ ماثلًا

وهٰذى تُريكَ الخَلْقَ والنَّفْس والطَّبْعا

حافظ ابراهيم

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٥هـ - ١٩٢٧ م



فهرس الكتاب

إهـــداء الكتاب

الى هؤلاء السادة الذين بعثتُ القولَ فيهم : إنمـا استوحيت فى هـذه « المَرَايا » خلالكم واستلهمت نزعاتِ أنفسكم ؛ فأنتم أحق الناس بأن تُهدَى اليهـم . فمن أصاب نفْسَـه فى « مرْآته » فأعجبته صورته فليوجِّه الحمد لله تعـالى الذى سوّاه على هـذا ، فليس لى من الأمر غير النقل والاحتِـذاء .
والسلام عليكم ورحمة الله ؟

المخلص

محـرّز المـرآة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

سألنى صديق لى كريم المنزلة عندى أن أتخيَّر له صَدرا من تلك « المرَايا » التى أرسلتُها فى « السياسة الأسبوعية » ليطبعها ويسوِّيها للناس كِتابا . وتعذَّرتُ عليه دهرا لأننى إنما أعانيها على أنها بِنتُ ساعتِها وحديثُ يومها لا على أنها مما يثبُت ، فى الزمان ، لتردّدِ الأنظار ، واعتياد الأفكار ؛ وما برح يعترينى بإلحاحه الكريم ويملِك علىّ مذاهب الحجج فى مطاولته حتى لم أجد لى مفِيضا من التسليم . فجمعتُ منها طائفة وضممت اليها ما كتَب فى هذا الباب شاعر مصر الكبير حافظ بك إبراهيم فى حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل ، وما كتَب أديب آخر فى حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر ؛ وجعلت أعود على تلك « المرايا » بألوان التهذيب فأرُمّ مارث بالطبع ، واستدرِك ما عسى أن تكون قد فوّتَت العَجَلة من فنون المعانى ، وأعالج ما أضعفَت السرعةُ مِن القول وأوهتْ من نسج الكلام . وأضفتُ الى هذه المجموعة طائفةً أخرى من رسائل شتى كان قد جرى بها القلم ؛ على أنها كلها مما يَدخل فى معنى تلك « المرايا » ويتّصل

يجنسها . ثم لقد اعتَمدْت من ألفاظ هذا الكتاب كلّ ما يحتاج الى الضبط فضبطته بالشكل ، وكلّ ما يحتاج الى المراجعــة ففسرته ، تدريبا للناشــئين على المنطق الصحيح . وأمدّنى بأصدق العون فى هذا كلّه وفى تصحيح طبع الكتاب الأديبان اللغويان الأسـتاذ أحمد زكى العــدوى والأستاذ محمد صادق عنبر ، وصلهما الله عن الأدب بخير الجزاء .

وصدّرت كل « مرآة » بصورة صاحبها (الكاريكاتورية) من رسم الفنان الأشهر الأستاذ (سنتيز) . أما صورة الغِلاف فقــد تفضل بوضعها الأستاذ الفنان المبدع مصطفى بك مختار محرم ، مدّ الله فى عمر أناملهما رحمة بالفن الجميل .

ولست أتحدّث عن مطبعة دار الكتب فان كل آثارها تحدّثك وحدَها عما أوفَى على الغاية من الدقة والجمال والاحسان . ولا يفوتنى فى هــذا المقام أن أنوّه بمــا لحضرة محمد نديم أفندى ملاحظ المطبعة من همة وخبرة يَزينهما حسن الخلال .

وقد راعيت فى ترتيب هــذه « المرايا » تواريخَ نشرها فى « السياســة الأسبوعية » فلا تأخذنى ، بعد هذا بتقديم زيور باشا فى « رجال السياسة » على سعد باشا زغلول ، ولا بتقــديم الدكتور محجوب ثابت فى « الطب » علَى علِي بك ابراهيم ، ولا بتقــديم الأستاذ فكــرى أباظه فى « الوطنيــة » على حافظ بك رمضان !

***

والغايةُ التي تذهب اليها « المرآة » هي تحليل « شخصية » مَنْ تجْلوه من الناس، والتسلُّلُ الى مداخل طبعــه، ومعالجةُ ما تدسّى من خلاله، ونفضُ هــذا على القارئ فى صورة فكهة مستملحة . وهــذا النوع من البيان إنما تروّيناه عن كتّاب الغرب وما فتئنا نقلّدهم فيه تقليــدا ؛ على أن بعض كتّاب العرب من أمثال الامام الجاحظ قد سبقوا الى شيء من هذا التصوير البيانى إلا أنهم لم يعْــدُوا فيه تسقُّطَ هنات المرء والصــولةَ عليها بألوان التنــدّر والتطريف. أما التوسل بمظاهر خلال المرء الى مداخل نفسه ومنازع طبعه، واجراءُ هذا على أســلوب علمىّ وثيق (Psychologique) فذلك ما لم أقع عليه فى منادراتهم ووجوه تطرّفهم .

ولا يذهب عنــك أن شأن الكاتب فى هذا البــاب كشأن المصــوّر (الكاريكاتورى) فهو إنما يعمد الى الموضع الناتئ فى خلال المرء فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيّأ له من فنون النكات . وأنت خبير بأن مردّ النكتة الى خَلل فى القياس المنطقى بإهدار إحدى مقدّماته أو بتزييفها أو بوصلها ، بحكم التورية ونحوها، بما لا تتصل به فى حكم المنطق المستقيم، فتخرج النتيجة على غير ما يؤدّى اليــه العقل لو استقامت مقدّمات القياس ، وهــذا الذى يبعث العجب، ويثير الضّحِك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البــديع . ولا يعزُب عنــك كذلك أن « النكتة » إذا لم تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يُحتاج فى إدراكها الى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة لا طعم لها فى مساغ الكلام .

ولعلك آخذى بأنى أُسِفّ أحيانا الى العاميــة الشائهة فأوردها فى دَرْج الكلام . وعذرى فى ذلك ما تعرف من أننـا نكتب بلُغــة ونتناول أسبابنا الدائرةَ بلُغة أخرى؛ وهيهات لك أن تجلّى على القارئ صورة كاملة من حديث قوم فى مناقلاتهــم ومنادراتهم وما تطارحوا من فنون النكات إلا بأن تورده كما نطقوا به، وبخاصــة اذا كان يجرى فى التعبيرات التى تشــيع على ألسن الناس وتذهب عندهم مذهب الأمثال؛ فاذا حاولت أن تؤدّى هذا بفصيح اللغة فسَد الغرض واختلّ نظم الكلام . وللامام الجاحظ فى هذا المعنى قول جليل، فراجعه إن شئت فى كتابه « البخلاء » .



وبعد فالرأى ألا نتناول الأقلام بمثل هــذا النوع من الحديث إلّا امرأً يقوم على شأن عام؛ على ألا نَتِرَه حقًّا ولا نُضيف اليه ما ليس له ؛ وعلى ألّا نتدسّس الى مكارِهه ولا نطلب من مستور هناته ما لا يتّصل بالشأن العام؛ فاذا هى اعترتْه بعد هذا بألوان التندّر كان حقيقا بها ألا تصرِف وجه القول الى الرغبة فى تهاونه والتهزئ به والكيد له . وهــذا ما تحريتُــه فيما عالجت من هــذه (المَرَايا) فان يكن قد ندّ القول بعضَ الحين فإننى امرؤ ينبو علىّ القلم، وتزل بِى القدم؛ وإنى أستغفر الله وأسأله العافية .

في حضرة الرئيس (*)

ملء السمع ، ملء القلب ، ملء البصر . لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلا عظيما ما آستطاع ، وهيهات لامرئ أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله ! وقد سوّى الله له هـذه العظمة من يوم مَدْرَجه : فكان طالبا عظيما ، وكان مِدْرَها عظيما ، وكان قاضيا عظيما ؛ ثم تناهت إليـه زعامة أمة فهو فيها ملءُ السهل والجبل .

بحَسْبك أن تراه لتعرف أنه سعدٌ ولولم يومئ إليك أحد بأنه سعد ، وكيف يختلط عليك أمره وهذه يد القدرة قد دلت عليـه بدلائل تنبئك بأنه ، وإن كان من الناس ، إلا أنه أعظمُ الناس .

بسطة في العلم والجسم ، بسطة في العقل والحلم . وعزم تتزايل الجبال دون أن يتزلزل ، ويقين تتحوّل الأرض عن مدارها ولا يتحوّل ، ومنطق يصول في الجلّى حتى لتحسَبها الجحافلَ قد تداكّت بسيوفها وعواليها ، ويلطُف في السَّمَر حتى لتتمثل أسراب الكواعب وَسْوستْ حليّها وتضوّعت منها غواليها .

وما إن رأيت ولا سمعت برجل فسّح الله تعالى له في البيان وأمكنه من نواصي الحجة كما فسَح لسعد ومكّن لسعد . ولقد نتقدّم لمباراته في الأمر تظن

(*) نشرت بجريدة الأهرام الصادرة في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٦ عقب زيارة محرر المرآة لدولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول بمسجد وصيف .

أنك قد بلغت منــه الغاية ووقعت على الصميم وتمنّعت منه بالحصن القوىّ، فما هو إلا أن يرسل عليك الحجة حتى ترى أنه ملك الرأى عليــك من جميع أقطارك، وأنك سُرْعان ما وقعت أسيرا فى يديه تتقلب فيهما تقلبا، وهيهات لك الخلاص إلا بأن تنزل فى أمرك على الإذعان والتسليم ! .

وإن أنسَ لا أنس ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشارا كان فى محكمة الاستئناف، معروفا بشــدّة الجدل ، فى مسألة فقهية، وكلما انحط الرجل فيهـا على رأى أزعجه ســعد فطار الى غيره ، حتى اذا ظن أنه تمكن فى أُفْحُوصه[1] ثار عليــه بالحجة فوثب الى سواه ، وما زال به صدرا من الليــل ينشُره ويطويه، وينقله من رأى الى رأى، ويحوّله من قول الى قول، حتى داخ الرجل ووهَن، ولم يبق فيه فضل لحِوار ولا جدل! .

ولا أدرى أكان ذاك من سعد مجرّد تَهَــدٍّ للرأى وتعقّب لموطن الصواب، أم أنه إنمـا كان يتلعّب بالرجل تلعبا لينزله على معرفة قدره، ففى نفس ذلك المستشار غرور وفى أنفه ورم ! أم هى المَخِيـلة[2] تبعثها فى النفس شدّة التمكن من النفس، وإنه ليلذّ لهـا أحيانا ألا تمتعك بذلك الواقع الذى اطمأننت به والحق الذى استرحت اليه، فمـا هو إلا أن تصول بالحجة عليك حتى ترى أنك إنمـا كنت تقبض على الهواء، وأن صَرْحك الذى أقمته تفرّق عنك تفرّق الهَبَاء، فتتولى منخذلا عن يقينك وقـد ضربك الشك : أكنت

(١) الأفحوص : مجثم القطاة وهو الموضع الذى تفحص التراب عنه لتبيض فيه .
(٢) المخيلة : الكبر .

مخدوعا عن الواقع؟ أم أن هذا الواقع دون قوة سعد فهو يصرّفه بحجته كيف يشاء؟ ... لا أدرى يومها ماذا كانت إرْبة الجبار . والله أعلم ! .

وسعد قد علت به السنّ وشاب رأسه، على أنه، بسط الله فى عمره، مازال يمرح من فطنته القوية فى أفتى الفتوّة وأمرع الشباب . ولو كُتِب لك الظفر ساعة بمجلس هذا الذى دوّت الدنيا كلها بمجده لنعمتَ بما لا يلحقه الوصف من عذوبة طبع فى عذوبة مجلس ، وحديثٍ كأنه قطع الروض رفَّ[1] آسُــه ونِسْرينه، وتضوّع ورده وياسَمينه؛ وبديهة كأنه يقرأ منها فى كتاب ، وكأنها تستوحى الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب . ونادرة تُشيع فيك الطرب، وتهزّك من إعجاب ومن عجَب ، إذ هو فيما يرسل من القول ، فى جدّه ومُزاحه، لا يعدو ما ينبغى له من تحشم ووقار .

وإنه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يُفْرِخ روعك، ويَفْسَح لك فى جوانب القول لتقول، وانه ليباريك فى منزعك، ويدارجك فى حديثك الى أن يرسلك على سجيتك ويسترسل معك، حتى اذا اطمأننت اليه وظننت أنك فى مساجلة رجل مثلك، خانتــه عبقريته، فوثب به ذهنــه الى ما لا يتعلق به ذهنك، فاذا أنت قد طرت كل مطير، واذا الطبيعة تأبى برغمك ورغمه إلا أن تشعرك أنك فى حضرة سعد زغلول ! .

يا لله من هــذا الرجل! وإنه ليَعْرض فى الأمر فيقول فيه مقالا، وإنك لتقدّر له بادئ الرأى غاية ما تعاهد النــاس من حجة ، وأقصى ما تعارفوا من دليل، فاذا هو قد وقع فى تدليله على مالم تقع عليه ظنون الناس، وارتفع

(١) اهتز من نضارته .

الى ما لم تتعلق به أذهانهم ففتح فى المنطق فتحا جديدا وأتى بما يبهر ويروع، وكيف لسعد ألّا يرتفع على مذهب حجة الناس، وقد رفعه الله على الناس ؟ .

وسعد وافر الشعور بعظمته ، مزدحم الشعور بأنه إنما يتحدّث على آمال أمة ، فهو مهما بارى المجلس فى فنون أحاديثه، ومهما تدلّى به السَّمَر الى تلك الأسباب الدائرة بين الناس ، يرفّه بذاك عن نفسه وعن صحبه ، يَطفَر الفَيْنة بعد الفينة الى حديث الوطن فيشك فيه معنى جليلا ، ثم يعود فيصيب ماشاء الله من حديث القوم. أعلمت أن سعدا لا يصلح إلا للوطن، وأن الوطن لا يصلح إلا بسعد؟ .

أريد أن أكتب عن سعد ، ومن الغرور أن أظن بقلمى الوفاء بوصف سعد مهما تفرّج له فى جوانب البيان، فان البيان انما يجرى فى غايته الى ماتعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس! أما تلك النفحات الإلٰهية التى يرسلها الله تعالى فى العصور الطوال ثِنْياً بعد ثِنْى[1] ليقيل أهل الأرض الزلّة ، ويهديهم من الضلّة — فذلك ما تعجز عنه اللُّغَى ويقصر من دونه البيان .

وبعد فاذا أردت أن تصف للناس سعدا فلن تستطيع أن تصفه بأبرع من لفظة (سعد) فقد جمعت من وجوه المعانى ما لا يبلغه الكلام، وان قدّرته العقول وتعلقت به الأفهام .

---

(١) وقتا بعد وقت .



لإنقاذ ما يُمكن إنقاذه ! ...

زيـــور باشـا . . . ؟

أما شكلُه الخارجىّ وأوضاعه الهندسيةُ ورسم قطاعاته ومساقطه الأُفقِيّة فذلك كله يُحتاج فى وصفه وضبط مساحاته الى فنٍّ دقيق وهندســة بارعة . والواقع أن زِيوَر باشا رجل — اذا صح هذا التعبير — يمتاز عن سائر الناس فى كل شيء، ولست أعنى بامتيازه فى شكله المهول طولَه ولا عرضَه ولا بُعدَ مداه، فإن فى النـاس من هم أبدن منه وأبعد طولا وأوفر لحما، إلا أن لـكل منهـم هيكلا واحدا، أما صاحبنا فاذا اطّلعت عليــه أدركتَ لأوّل وهلة أنه مؤلّف من عدّة مخـلوقات لا تدرى كيف اتصلت ولا كيف تعـلّق بعضُها ببعض ، وإنك لترى بينها الثابت و بينها المختلج، ومنهـا مايدور حول نفسه ومنها ما يدور حول غيره، وفيها المتيبِّس المتحجِّر، وفيها المسترخِى المترهِّل . وعلى كل حال فقـد خرجت هضبة عالية مالت من شِعافها الى الأمام شعبةً طويلة أطلّ من فوقها على الوادى رأس فيه عينان زائغتان، طلّةَ من يرتقب السقوط الى قرارة ذلك المهوَى السحيق !

وإنك لتجد ناسا يصفون زيور بالدهاء وسعة الحيلة، بينما ترى آخرين ينعتونه بالبساطة وقد يتدلّون به الى حدّ الغفلة ، كما تجد خلقا يتحدّثون بارتفاع خُلقه وتنزهه عن النقائص، إذ غيرهم ينحطون به الى ما لا تجـاوره مكرمة ولا يسكن اليه خُلق محمود !

كذلك زيور عند الناس مجموعةٌ متباينة متناقضةٌ متشاكسة: فهو عندهم كريم وبخيل، وهو شجاع ورعديد، وهو ذكى وغبي، وهو طيب وخبيث، وهو داهية وغِرّ، وهو عالم وجاهل، وهو عَفٌّ وشَهْوان، وهو وطنى حريص على مصالح البلاد، وهو مستهتر بحقوق وطنه يجود منها بالطارف والتلاد ! !

كل أولئك زيور ؛ وكل هـذا قد يُضيفه النـاس الى زيور فلا تكاد تسعهم مجالسهم بما يأخذهم فيه من الدهشة والاستغراب . واذا كان هذا مما لا يمكن فى الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد فقد غلِط الناس اذ حسبوا زيور رجلا واحدا ، والواقع أنه عِدّة رجال ، وعلى الصحيح هو عدّة مخـلوقات لا تدرى، كما حدّثتك، كيف اتصلت ولا كيف تعلّق بعضها ببعض ! فاذا أدهشك التباين فى أخلاقه، وراعك هذا التناقض فى طباعه، فذلك لأن هذا الجِرْم العظيم الذى تحسبه شيئا واحدا مؤلّف فى الحقيقة من عدّة مناطق لكل منها شكله وطبعه وتصوّره وحظه من التربية والتهذيب : فمنهـا العاقل ومنها الجاهل، ومنها الحكيم ومنها الغِرّ، ومنها الكريم ومنها البخيل، ومنها المصرى، ومنها الجركسى ، ومنها الفرنسى، ومنها الانجليزى ، ومنها المـالطى الخ ؛ كل منها يجرى فى مذهَبِه ويتصرّف فى الدائرة الخاصـة به ، فلا عجب اذا صدر عن تلك المجموعةِ الزيورية كلّ ماترى من ضروب هذه المتناقضات !

والظاهر أن زيور باشا برغم حرصه على كل هذه المتملّكات الواسـعة ، عاجز تمام العجز عن ادارتها وتولّيها بالمراقبة والإشراف . وما دامت الإدارة المركزية فيه قد فَشِلت كلّ هـذا الفشل فأحرى به أن يبادر فيعلن إعطاء كلٍّ

منها الحكمَ الذاتىّ على أن تعمل مستقلة بنفسها على التــدرُّج فى سبيل الرقىّ والكمال، وحسب عقله، فى هذا النظام الجديد، أن يتوافر على إدارة رجليه وحدَهما، ولعله يستطيع أن يسيِّرهما فى طريق الأمن والسلام !

⁂

وإنى أورد عليك طائفة يسيرة تدلك على مافى هذه المجموعة الغريبة من ضروب المتناقضات التى تجزم منها بأن ذلك الخلْق ليس شيئا واحدا وانما هو فى الحقيقة عدّةُ أشياء :

فزيور باشا معروف بالقناعة والتعفف عن الابتذال فى إحراز الأموال، ولكنهم فى الوقت نفسه يقولون إن جميع نفقات الولائم التى أقامها فى مصر وفى أوربا قد تناولهــا من « المصاريف السرية » بينما هو يقبض من خِزانة الدولة ألف جنيه لهذا الغرض فى كل عام !

ومـمـا يحسن ذكره فى هذا الموضوع ما تحدّثوا به من أنه لـمـا زار أوربا فى الصيف المــاضى طاف بجميع المفوّضيات المصرية هناك فسلَّ كلَّ ما فيها من « المصاريف السرية » حتى اذا علم أنه قد أتى على كل ما فى مفوّضــية باريس من هذه الأموال ولم يدَع لها قرشا ولا بارة أرسل تلغرافا الى مفوّضية لندن لتسعِفه بكل ما عندها من النقود !

ولقد تعلم أحيانا عن زيور باشا حرصَه على مصالح الدولة، على أنك إذا عاتبته على إسراف الحكومة فى عهده وابتذالها لأموال الدولة بهذا الأسلوب الفادح أجابك من فوره « ان مصر غنية » (l'Egypte est riche) ! ! !

ولقـد تعرف فى زيور باشا طيبةً فى القلب وسـلامة فى الخُلق، ثم لقد يَظهر لك فيه من المكر وتَرى له من أنواع الدسِّ ما يعيا بمثـله أخبث الشـياطين . ولقد ذكروا أنه كلما التقى بسـعدى أنَّب قومه على اتفاقهم مع « ألد أعدائهم » الأحرار الدستوريين ، واذا أصاب حرا دستوريا قال له : كيف يصح أن تتَّحدوا مع أولئك « المجانين المخربين » !

ولقد كان شـديدَ الشكوى من نشأت باشا وبسطة يده فى كل مصالح الحكومة، فاذا قيل له : وكيف لا تكفّه عن هـذا وأنت رئيس الحكومة؟ بسـط كفيه ورفع رأسه الى السماء وأجاب : وهل يستطيع أحد أن يعمل شيئا ؟ فلما أُقِيل نشأت باشا من السراى جعل زيور يُقبل على كل من لقيه يتمدّح بأنه هو الذى أخرجه ووقى البلاد شرا عظيما !

وقد يعرف عنـه بعض الناس قِلّة الخير ومع ذلك فان له صاحبا ورفيقا من رفقـاء الصبا هو (ص بك غ) وله ولد يطلب العـلم فى باريس فعيّنه فى مفوضية باريس فى وظيفة غير موجودة !

وعلى هذا الصديق دَين لبعثة المرسلين الإفريقيين فى مصر وقد استبهظ الربحَ فوسَّط فى الأمر صـديقَه زيور باشا الذى قصـد الى روما فى تَجْواله بأوروبا فى العام المـاضى، ومع ما يُعرف عن دولتـه من أنه خِرِّيج مدارس الجزويت وأنه أخذ عنهم الدهاء والمكر وبُعْدَ غَوْر النفس، فقد طلب مقابلة قداسة البابا نفسه وخاطبه فى الأمر وسأله التخفيف من دَين صاحبه، والبابا أحاله على وزير خارجيته الكاردينال جاسبارى، وبعد أن سمع هذا من رئيس

وزراء مصر كلَّ ما أراد أن يقول هز كتفيه وقال له : (Chi rccevato paga)
أى « على من أخذ أن يدفع » وكان على زيور باشا أن يعرف ذلك !

تلك بعض آثار هؤلاء الذين يدعونهــم زيور باشا ، فاذا تمثّـلوا شخصا وبَدَوا للعيون رجلا واحدا فذلك مصداق قول أبى نواس :

ليس على اللهِ بمستنكَرٍ * أن يجمع العَـالَمَ فى واحِدِ

وإن أهــل مصر ليأخذون زيور باشا كلَّه بمـا لا يُحصى من الجرائم على القضية الوطنية، وإنهــم ليعدّون عليــه سفهه فى أموال الدولة واستهتاره بمصالحها ، وإنهم ليحسبون عليه إيثاره الأهلَ والأقربين والأصحاب والمحبين وذوى أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها، وقد يكون لمجلس النوّاب مع هؤلاء الرجل شأن اذا أقبل يوم الحساب !

وإن ظلما أن يُؤخَذ البرىء بجريرة الآثم ، وإن عسفا أن يعاقَب المظلوم بمـا أجرم الظالم، فقد يكون الذى اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور باشا الأيسر، أو القسم الأسفل من (لُغْده) أو المنطقة الوسـطَى من فخِذه اليمنى، أو غيرها من تلك الكائنات التى تجمّعت فى هيكله العظيم، فما شأن تلك المخلوقات كلها تُجَرُّ الى مواطن الاتهام، وتعاقَب بما ارتكب بعضها من الجرائر والآثام ؟ ! .

إن الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس النوّاب، ان شاء الله، لجنة تقوم بعمل التحقيق فى جسم صاحب الدولة فتسأل أعضاءه عضوا عضوا ،

وتحقّق مع اشلائه شِلْواً شِلوا، حتى يُفْرق منها بين المحسن والمسىء، ولا يُخلَط في العقوبة بين المجرم والبرىء .

ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ زيور باشا، فما أحسبه شارك ولا دخل، فى شىء من كل ما حصل !.

* * *

وبعـدُ فاذا كان هناك وصفٌ جامع وخَلَّة مشتركة لهـذه الخلائق التى تجمَّعت لجسم زيور باشا حتى انتظمت فيـه شَعْبا واحدا فذلك أنه قِسيس جزويتى فى جلد رئيس وزارة مصرى، فقد تربى زيور فى مدارس الجزويت كما قلت لك، وتخرّج عليهم وتخلّق بأخلاقهم . فاذا رأيت فى طبعه سهولة وفى نفسه بساطة فذلك لبعد غَوره حتى ليُخفى عليك مافى نفسه من مكْرودهاء!

وفيه صـفة أخرى جامعة أيضا هى شدّةُ احترامه «للبرنيطة» وعملُه على إرضائها بكل الوسائل، فـا عُرِف أن زيور ردّ فى حياته طلبا « لبرنيطة » مهما كان حاملها فى الناس، حتى لقد زعموا أن بعض كبار علمائنا الأعلام، مصابيح الدجى وعَمَد الإسلام، بعـد ما أعياه الكد والجهد وشـدّة الطلب والسـعى وطول الوقوف بالأبواب، والتردّد بين مختلف الأحزاب، فى سبيل وظيفة خالية عَزم أخيرا على لبس القبَّعة لعله يحظى فى هـذه الأيام(١)، بمعونة زيور على إفتاء الديار أو مشيخة الإسلام . ومولانا الشـيخ المذكور، بوجه خاص، لا يعدم ألف فتوى من الشريعة، تُحِلّ له هذه الذريعة .

---

(١) نشرت هذه المرآة وزيور باشا فى رياسة الوزارة .



لا مُعَنًّى بكلِ شيءٍ ولا كُلُّ عَجيبٍ في عَينِهِ بعجيبِ

عدلى يكن باشا

أسمر اللون فى شحوب، إلا أن ما يخالِط سمرتَه من صفرة حلوٌ مستعذب. يمتاز بقليل من الطول وكثير من العرض، فهو بعيد ما بين الكتفين حتى لتعرفه مولّيا كما تعرفه مقبلا. مستوى مَعَارِف الوجه، حديد البصر، اذا قُدِّر لك أن يحدِّق فيك شعرت أن نظره لا يستقرّ على سطحك بل إنه ليتغلغل فى أطوائك ويصل من نفسك الى كل ما تضَنّ به على الابتذال. وادع ساكن تتجلجل الدنيا من حوله وهو ثابت ثبات الهرم الأكبر. ولقد تجلس اليه تحدثه فى شئون الدنيا فتطالِعه بأجلِّ أحداثها فلا يتقبّض ولا يَخْتَلِج[1]، الا أنه يستلقى على كرسيه ثم يدسّ يسراه فى جيبه ويدير بيمناه رِزْمة من المفاتيح. وتحسَب أن ذهنه ليس عندك اذ هو عندك كلّه لا يفوته من حديثك قليل ولا كثير.

وكانت لجنةُ الدستور، وزاره بمَحضرى رجل من أعضائها، فسأله ماذا صنعتم اليوم؟ فقال له كنا نتناقش فى موضوع (كذا) فاستوى عدلى على كرسيّه ولبث ساعة يتدفق بالحديث فى ذلك الموضوع ويورد كل مذاهب علماء الدستور فيه، يعلل كل رأى ويوجه كل مذهب فى بلاغة وفصاحة قول ودقة تعبير، وخرجنا وصاحبى يضرب كفا بكف، ويزعم لى أنه لو حلف بكل مُؤَثِّمة من الأَيمان أن عدلى كان حاضرَ لجنتهم ما حَنِث ولا أَثِم!

---

(١) يضطرب.

شديد القصد فى حديثه ، فاذا أذن الله وتكلّم فهو حلو الحديث رخيم الصوت، بارع المطلع، رائع المقطع، يُصيب المَحَزَّ ويقع من فوره على اللباب. تشعر أنه خلص الى الغاية وأصاب صميم النزاع دون أن يعلَق بقوله شىء من وَضَرِ الجدل وما لا تدعو اليه حاجة الكلام .

لعل عدلى قد جاوز الستين، وأحلف بدَوْرِى أن مصر لو كانت عاشت عيشا طبعيا خاليا من الأحداث والعظائم ما كان له فى الدنيا أثر، ولا جرى له على لسان جَمْهَرة المصريين ذكر ولا خبر، فلقد نجَم عدلى باشا فى مناصب الحكومة كما نجم غيره من الناس موظفا صغيرا فى وزارة الداخلية ، وما برح يتقلّب فى فنون الأعمال العامة حتى أصبح وكيل مديرية فمديرا فمحافظا للعاصمة فمديرا لديوان الأوقاف فمتقاعدا فى داره فوكيلا للجمعية التشريعية فوزيرا للمعارف؛ لا يمتاز فى شىء من ذلك الا بالنُّبل والكبر على الصغائر والترفع عن سفساف الأمور . وكل ما كان له فيما عالجه من الأعمال من صحة الرأى وصدق التدبير وحسن التنظيم، فما كان ليذكر له شىء منها الا بألسن من شارَفُوه ومن عَمِلوا معه . أما عظمة عدلى وأما شهرته الخالدة على الزمان فهو مدين بهما للجُلّى وللأحداث العظام؛ فلولا جَسِيمات الأمور لكان عدلى رجلا مُدْرَجا فى عداد سائر الرجال .

ولقد كان وزيرا للمعارف فى وزارة رشدى باشا فى سنة ١٩١٨ وتهادنت الدول المحتربة الهدنةَ العامة وشمّرت لعقد الصلح وتوقع المتطيرون أن تكون مصر من حصة انجلترا فى سَلَبِ تركيا المقهورة، فنهض رشدى ومعه صاحبه عدلى وناجيا الانجليز بأنهما يريدان أن يشخَصا الى انجلترا ليراجعاها فى حقوق

مصر التى ضحت بما ضحت من الرجال والأموال فى نُصرة قضية الحلفاء . وتثاقل الانجليز عنهما وتعللوا باشتغال ساستهم عن لقائهما بالاستعداد لمؤتمر الصلح، وخاف رشدى وعدلى أن تُفلتهما الفرصة، وكرِها الصبر على الهَضيمة فنفَخا فى الحركة الوطنية من روحِهما القوى وراحا يؤازران الوفد المصرى ويشدّان عضدَه من جهة ، ويشرّعان الإضراب للموظفين ويستحمِسان الجمهرة من جهة أخرى ، حتى كان من أمر النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ ما كان . وتلك أُولى عزائم عدلى التى يحصيها له الجمهور .

وهبط ملنر مصر والوفد قائم فى باريس ودارت اللجنة هاهنا وهاهنا لعل أحدا يعاطيها أو يقاولها، فاستمسك الناسُ كلهم عنها ولم يُوَاتها منهم أحد، فعاذت فى النهاية بالثلاثة الأعلام : رشدى وعدلى وثروت ، فصارحوها بأنها إن أرادت الجِدّ ، فلا تفاوض فى شأن مصر غير الوفد ، فلتَمْضِ الى باريس فهناك الحديث . أما فى مصر فلن تجد، مهما طال بها المقام، ثلاثَ قطط تحدّثها فى شأن البلاد !!

وَانكفأت لجنة ملنر الى لندن واستشرفتْ حقًّا لمفاوضة الوفد، اذ الوفد لا يتحول الى لندن دون أن يستبين موضع خَطْوِه، ويريد ، وبين يديه رجاء أمة ، أن يعرف فِيمَ مذهبُه وأين يقع حديثه ، وكيف تكون غاية أمره . فدارت الانظار كلَّ مدار فلم تقع لهذا المهم الا على عدلى فدعاه الوفد فلبَّى الدعاء وشخَص الى باريس فلندن فمهّد الطريق ووطّأ أكنافَ السياسة هناك، وكان خير معوان للوفد على أداء مُهِمّه الخطير .

وألّف الوزارة فى صدر سنة ١٩٢١ وشخص الى لنـدن فى وفد رسمى وفاوض كرزن وأدلى اليه بحقوق مصر وأمانيها كلها، وأبى أن ينزل على ما أراد الانجليز أن ينزلوا مصر عليه، فقطع المفاوضة وعاد من فوره مرفوع الرأس موفور الكرامة، وما كادت تستقر قدمه حتى استقال من منصب الوزارة استقالته الكريمة النبيلة .

واليوم وقد تحرّجت الأمور، وتصدّت القوة بكل ما عنـدها لتنال من مصر فلا يلتفت زعيمها الأكبر الا الى صديقه عدلى . وكذلك كان شأن عدلى دائما تلتفت مصر اليه كلما نزلت بها الأحداث الجسام .

وبعد فلقد تحسب عدلى رجلا عِظاميا تلقّى المجد عن آبائه العظام الفاتحين . والواقع أن عدلى يكن رجل عصامىّ بأجمع معانى الكلمة، وقد لا يعدله فى عصاميته هذه رجل آخر فى البلاد .

فأنت تعرف أنه ابن نعمة نشأ فى الحسب، وتقلبت أعطافه فى الترف، وأغناه الله عن طلب العلم وكدح الذهن ومطاولة حوادث الدهر، ولِداته[1] كثير وأكثرهم — وبخاصة فى الزمن الذى نجم فيه عدلى — لا يقع هواه الا على مهارشة الديكة، ونطاح الكباش، والملاعبة بالحمام، ومعاشرة المتبطّلين، والافتنان فى وجوه اللذات، والغباء الكامل عن كل ما يعنى البلاد، فهل صدّقتنى أن عدلى رجل عصامىّ حقا اذ خرج عن هذه البيئة فكوّن نفسه كل هذا التكوين وعارك من الحوادث ما عارك حتى أصبح من أعظم الذخائر التى تعتدّ للجُلّى

(١) لداته : أترابه الذين ولدوا معه وتربّوا .

فى البلاد ؟ وحسبُه ما وصفه به صحفى من أكبر الصحفيين فى أوروبا :
انك حين تلقَ عدلى باشا فكأنك فى حضرة أعظم الوزراء فى «دوننج استريت»(١)
أو فى «كيدورسيه»(٢) .

وإن من يعرفون عدلى ليعدّون له عيوبا، ويُحْصُون عليه آثاما وذنوبا،
وسبحان من تفرّد بالكمال .

ومن ذا الذى تُرْضَى سجاياه كلها * كفى المرءَ نبلا أن تُعَدّ معايبُهْ

فهم يحسبون على طباعه أنه ما برح « ابن ذوات » فهو قليل الاتصال
بالناس، شديد التحفظ بنفسه عنهم، لا يزورهم ولا يستزيرهم ولا يستريح الى
مجالستهم . ومهما توافى له انسان وتعلق بحبه فهو لا يطالعه بالهناء اذا دخلت
عليه نعمة ؛ ولا بالمواساة اذا مسّه الضر، ولا يَعُوده اذا مرض ولا يشيّع
جنازته اذا مات ! واذا طلبه صاحبه لحاجة عامة أو خاصة حيّره وشتّت
سعيَه، فاذا أراده فى البيت قالوا له فى «الكلوب» واذا وثب الى «الكلوب» ،
قالوا فى البيت . ويحلفون على أن اقتحام قلعة للألمان وقت الحرب العظمى
أيسر من زيارته فى بيته !

ولو قد كُتِب لى أن أصبح هيئة سياسية واحتجْتُ فى شأن البلاد الى
سعى عدلى باشا لوكّلت به (عصبة) من أولاد البلد أولى القوة والفتوّة
فتسلّموه فى صباح كل يوم، وأرادوه على المشى ساعتين فى الأحياء الوطنية،
وأكرهوه على أن يُفشى السلام، ويومئ بالتحية لكل من لقيه؛ حتى اذا جُهِد

(١) مثوى الوزارة الانجليزية . (٢) مثوى الوزارة الفرنسية .



به رِدّوه فأجلسوه فى البَهو وفتحوا الأبواب بين يديه . وكلما دخل عليه زائر بشوا وجهه بالهشاشة ، ويديه بالتحية ، ولسانه يجرى : « أهلا وسهلا ومرحبا . زارنا النبي — شرفتنا . آنستنا » الخ ثم صفق بيديه فلبّيا بالقهوة وعرض على الزائر « نرجيلة » فاذا ردّها قدّم له سيجارة فسيجارة فثالثة . فان كان الضيف موظفا سأله عن عمله ودرجته ومرتبه ، وأظهر له التوجع على تأخره وتقدم أقرانه ، وان كان زارعا أقبل عليه فسأله عن القطن وما عسى أن يكون قد اعتراه من الآفات ، والمناوبات وشحّ المياه ، ومناطق الأرز وإطفاء الشراقى وسعر كيلة البرسيم اليوم ! ... واذا حضر وقت الغداء — وهنا الكلام — وهمّ الضيفُ بالانصراف أمسك بطرف ثوبه وعزم عليه ليتغدينّ معه . وحلف جاهدا أنه لا يجد فى ذلك كُلفة ولا يتجشّم فى سبيله مشقة . وأنا بعد ذلك ضامن لدولة الباشا أن الضيف منصرفٌ غير لابث ، معتلاً بالمرض وضعف البِنْية ، أو بالضيف ينتظره فى داره ، أو غير ذلك من وجوه التعاليل ، ولا يحتمل الباشا من هذه « الكركبة » كلّها الا حسنَ الذكر وسيرورة الأخبار ، بما له من رائع الآثار ، فاذا ذُكِرت الشجاعة قالوا إنه عنتر عبس ، واذا ذُكِر الحلم حلفوا أنه الأحنف بن قيس . واذا عرض حديث المكارم ، أقسموا أنه أجود من حاتم ، فاذا كان الكلام فى الفصحاء والمَقاوِل ، زعموا أنه أخطبُ من سَحْبانِ وائل .

فأما اذا ظلّ سابحا فى السماء ، فما أقلّ حظّ أهل الغبراء ، من عدلى باشا فى الزعماء .



ودَعاكَ حُسَّدكَ الرئيسَ وأمسَكُوا * ودعاكَ خالقُكَ الرئيسَ الأكبرَا
خَلَقَتْ صِفَاتُكَ فى العيون كلامَهُ * كالخطِّ يمــلأ مَسْمَعَىْ من أَبْصَرَا

سعد زغلول باشا

رزقه الله بسطة فى الجسم والجاه فهو ملء العيون ملء الصدور . بلغ فى دنياه ما دون التحية (١) ، وأدرك ما وراء الأمنية . اذا غشى مجلسا وفيه قوم جلوس رأى القومُ أنفسَهم وقوفا ولم يريدوا ، وتنحَّوْا عن الصدر ولم يقصدوا ، وخاطبوه بالرياسة ولم يتعمدوا ، ورأى سعد نفسه رئيسا ولم يتطلَّع . فما جلس سعد مجلسا فأقيم عنه لغيره . وكذلك كان يقول الأحنف عن نفسه . فسعد طالب العلم الخاملُ الذى لا يعرفه غير شُجَرائه . وسعد الزعيم النابه الذى تعرفه الأعاظم والعظائم سواءً .

اذا وقف سعد يخطب الناس وثبت الألفاظ من مكامنها وأسفرت المعانى عن وجوهها وتغايرت فى السبق الى ذهنه ولسانه ، فلو أن كاتبا كتب ما يرتجله ذلك الخطيب لوقعْت منه على أسلوب سَرِىّ رائع ينقطع دونه تنميق الأقلام . فاذا جلس سعد الى الإنشاء وقعْت منه على أسلوب لا يُغبَط عليه كاتبه ؛ فلو أن حالفا حلف أن سعدا الخطيب هو غير سعد الكاتب لبرّت يمينه .

يطلع سعد على الناس وهم يرتقبون طلعته ارتقاب المُدْلِج (٢) الحائر طلوعَ القمر ، فيدانيهم وهو يكاد يتهدّم ضعفا ، على وجهه تجاعيدُ من أثر السنين ،

---

(١) الخلود . (٢) السائر بالليل .

فلا يكادون يتلقّونه بالتهليل والتصفيق حتى ترى ذلك الشيخ وقد طوى ماضيَه القهقرى فالتقى بشبابه وكأنما وثب من الشيخوخة الى الصبا ؛ واذا بتلك التجاعيد وقد اُمّحتْ وتلك الأساريرِ وقد أشرقت ، فيخطبهم ما يشاء حتى اذا أفاق من سكرة ضعفه وأسكر سامعيه بخمر فصاحته انكفأ بين التصفيق والهُتاف الى داره فقضى فيها ساعة أو ساعتين من سَاعِ الشباب ثم عاوده الضعف شيئا فشيئا حتى يدخل فى شيخوخته كما كان . ومن لم يعرف ذلك الرجل العظيم الذى علت سِنُّه وتكامل تمييزه ولم يلابسه فى أطوار حياته لا يشك فى أنه انما كان يتمارض (أو يتصنع المرض كما يقولون) .

ارتاح سعد لمهنة المحاماة لأجل الخَطابة ، وارتاح للزعامة لأجل الخطابة ، وهو يرتاح لكل ما فيه منفَذ للخطابة . ولا غرو فقد منّ الله عليه بموْهبة عظيمة لا يمنّ بها على كثير من عباده فهى لا تفتأ تتطلع للظهور فأنَّى أصابت منفَذا أطلّت منه . فلو أنك عرضت على سعد مُلك الرشيد على أن يهجُر الخطابة لنأى عنه بجانبه ولرجع مُهَرْوِلا الى الزعامة فان أفلتته فالى المحاماة .

نقل الىّ بعض خاصته الذين يحجبون بابه أنه استأذن يوما لوفد من الوفود وكان سعد فى ذلك اليوم لَقِسَ(١) النفس متبرّما بالناس لكثرة ما لاقى منهم فقال له اعتذر ، فقال إنهم يُلحّون ؛ قال فأْذَنْ لهم على أن يسلّموا وقوفا وينصرفوا ، فأدّى اليهم الرسالة ودخلوا ؛ وأقسم لى الحاجب أنهم لبثوا فى حضرته ساعة وبعض ساعة وهو لا ينقطع عن الخَطابة .

(١) لقست نفسه من الشىء : غثت وتضايقت .

كنت بحضرته يوما وقد مثل أمامه وفد من الوفود فمدّ بصره اليهم وقال: من خطيبكم؟ فلما لم يُصب فيهم خطيبا كاد يُعرض عنهم لولا حاجته الى مناصرتهم .

لذلك تقربت اليه الوفود بالخطباء، وشاع في نفوس النّشْء حب الخطابة تشبها بسعد، فكثرت الخطباء وفى كثرتهم مظهر من مظاهر النهضة الوطنية المباركة . فسعد مدرسة لا تقفل أبوابها يؤمّها الطلاب من أنحاء القطر .

إنه يتشدّد فى الحق ولا يترخّص فيما يعتقد أنه حق . ذلك كان شأنه قبل الزعامة ، فلما ملك يومه وأصبح الزعيمَ الأكبرَ أبت عليه طبيعة السياسة أن يأخذ دائما بذلك التشدّد ، فهو اذا وقفت به الحزبية بين الصواب وبين هوى العامة لا يلبث أن يَعدِل الى الثانية تمكينا لسلطانه عليهم . يفعل ذلك وهو يعُدّها فى نفسه على نفسه قبل أن يعُدّها خصومه عليه .

نزل سعد الى ميدان السياسة وهو يظن أنها كالقضاء سبيلها الحق والعدل ، فلما خاض غُمَارها ورأى ما راعه فيها من أساليب المداجاة وأفانين الخداع همّ بالنكوص لولا أن إيمانا رسخ فى قلبه ويقينا ملأ أنحاء نفسه أن صاحب الحق هو صاحب الغَلَب حملاه على الثبات فتدرّع بهما ووطّن نفسه على الكفاح . وقُصاراه أن يَشهَد بعينه دستور مصر وقد سلم لمصر ، وأن يرى وطنه مستقلا تحت ظل الله ، فهو يعمل لهذا المقصد الأسمى، ولَشَدّ ما يتكئ فى هذا العمل على نفسه ، وما كان ذلك لضعف فى ثقته بمن حوله ولكنه رجل قد بُنِي على الجدّ والعمل .

أبت الناس الا أن سعدا ضيقُ الصدر . وكيف لا يضيق صدره وإن كان رحيبا وهو مدفوع بحكم الزعامة أن يقابل كل من يصبُّه عليه أفق السياسة من الزائرين والقاصدين وفيهم ثقيل الظل جامد النسيم ، والمُلِحّ الذى يكاد يستلّ بإلحاحه خَيْط النُّخَاع ، والمتربّح بزيارته ، وذلك الذى تخرج من حديثه ركضا الى طبيب الآذان ، وذلك الذى يقتلع الكلامَ من فمه اقتلاعا حتى لكأنّ نفسك تطلُع منه على حَشْرجة لا على استماع حديث . دع الجاهل المتصدر والأمّى الذى يدعى فهم ما غاب عن بسمرك من السياسة ، وما خفى على نابليون فى تعبئة الجيوش من الكياسة . وإنَّ جِلْسة واحدة الى الشيخ (فا ...) لتبغِّض الحلم الى الأحنف ، ولتزهِّد الزعيم فى كرسى الزعامة . ولو أن أعداءنا فطنوا لذلك لرمَوْا سعدا فى كل يوم بمثل هذا البغيض حتى يفرّ من الميدان ، ونخسَر بِفِرَاره قضيةَ الأوطان .

دخل عليه ذات يوم فى داره بمسجد وصيف شاب من المفتونين فسلم عليه سلام الأكْفاء وجلس معه على بِساط المساواة ولم يحتشِم ذلك المفتون فى جِلْسته ، فقد جعل يَصْفِر بفمه ويلاعب الجوّ بسلسلة ذهبية كانت فى يده ، ولما قضى شهوته من العبَث بحضرة ذلك الشيخ الجليل التفت اليه وقال : يقولون إنك خشِن الملمس قريب الغضب ولا أرى فيك الا حليما ، فأجابه سعد وعلى فمه ابتسامةُ الكاظم لغيظه : وكأنك ما جشّمت نفسَك السفَر وجئت لى الا لتستثير غضبى ؛ قم فلستَ هناك .

وزاره فى بدء الحركة الوطنية أحد المتطرفين، فتجادل فى أمر من الأمور وحَمِى الجدال ، فأغلَظ المتطرف القول، فقال له سعد : أتجبهنى بمثل هذا وأنت فى بيتى ! قال : لم أكن فى بيتك ! قال : ففى بيتِ مَنْ اذًا ؟ قال : فى بيت الأمة . فسُرِّى عن سعد وقال له : صدقت ! إنه بيت الأمة ! ومن ذلك الحين أصبح بيتُ سعد بيتَ الأمّة .

وإن صدرا يتسع لما يضيق عن بعضه صدر الدهر لخليق أن يُسمَّى حاملُه حليما .

وهو كثير الذّهاب بنفسه ، ولم يجئه ذلك من ناحية الزّهْو كما يزعمون ؛ ولكن جاءه من ناحية التمكُّن من النفس .

جلس اليه أحد أقرانه وكانت بينهما وَحشة لشيء قد بلغه عنه، فقال له سعد وهو يحاوره : اعلم يا هذا أننى معجَب بنفسى وكيف لا أُعجَب بنفسى وأنا لا أرى من يعمَل غيرى .

يسره أن يُؤكَل طعامه وأن تُغشَى داره ، ولكن قلّما يسرّه أن يخالَف رأيه، اللهم الا اذا لمح بعين بصيرته أن من وراء تلك المخالفة إجماعا .

يجلس سعد الى مناظره وفى يد مناظره الحجة قائمة ، فلا يزال به يستلُّها من يده شعرة شعرة حتى تصير الحجة فى يد سعد فيقيمها على مناظره .

يسوءه النقد الا اذا كان نزيها ، وأنَّى لهذا البلد بالنقد النزيه !

إن سعدا يكلف الناقدين شططا ، أنسِى أن نصيبه من ذلك نصيب كل

نابغة مشهور ؛ وكل عظيم مذكور . وقد جاء فى الأمثال اذا قيل عنك إنك نابغة فودِّع الراحة .

نشأ سعد وفى ثوبه عظيم ، كان فى المحاماة رأسَ المحامين ، وكان فى القضاء رأسَ القضاة ، وكان فى الوزارة رأسَ الوزراء ، ولم يكن فى كل أولئك بالرئيس الرسمى اللهم الا فى وزارته الأخيرة .

فسعد عظيم وهو ابن عشرين ، وفوقَ العظيم وهو ابن سبعين . وقد قال أديب من صفوة أدباء مصر : عظماءُ الرجال أمثال الجبال ، لا تنتقِص الكُهوف ما لها من العظمة والجلال .

حافظ ابراهيم



أبــو الهــول :

لِىَ فى ضَميرِ الدَّهرِ سِرٌّ كامِنٌ * لا بُدَّ أن تستَلَّه الأقدارُ

عبد الخالق ثروت باشا

لطيف الحجم، دقيق الجسم؛ لولا بُدُونة دخلت عليه فى السنين الأخيرة؛ طلْق الوجه، عذب الروح، فَكِه الحديث . ولو أنه قدر لك أن تَصحبَه عشرين عاما دون أن يُقيَّض لك ٱسمُه ما عرفت قطّ أنك فى صحبة هذا الذى لا يبلغه العجَب .

ويترك فى الدنيا دويًّا كأنما * تداول سمعَ المرءِ أَنْمُلُهُ العشرُ

فلقد تحضُر مجلسَه فيقبِل عليك يحدّثك فلا يرتفع بك الى نفسه وإنما يتدلَّى بكل حديثه الى نفسك، فتراه يُدَارِجك فى قولك، ويكلمك من جنس كلامك ، ويبارِيك على قدر فهمك حتى تنصرف عنه وقد هيأ لك وهمُك أنه مثلُك؛ هذا اذا لَطف الله بعقلك فلم يهيئْ لك أنه دونَك !

وإنه إذ يتحدّث اليك لتَخْتلِج معارفُ وجهه حتى ليتمثّل لك فى شخص تلميذ فى السنة الرابعة الابتدائية ! وإن حدقتيه لتضطربان فى حركة أفقية ؛ على أنك لو تفطنت لأدركت أنها ليست حركةَ الحائر المتردّد، بل إنها لحركة المتعرف المتقرّى الذى يريد أن يستلّ منك ذات نفسك . وإنه ليجُسُّها من جميع أقطارها ليبلُوَها أيّها أهونُ عليه .

ولقد يخيّل اليك لطف ثروت وتبسّطه فى حديثه معك أنك مستطيع أن تدسّه فى جيبك إذ هو قد دسَّك من أوّل المجلس تحت نابه ! فاحذَره أطلقَ ما يكون وجها وأنعمَ حديثا .

لعلّ ثروت باشا أبعدُ المصريين نفسا وأعمقُهم ضميرا ؛ وقد حدّثنى من طالت به صحبته أنه من شباب سِنّه قد جعل يمرّن نفسه على إخفاء نيّاته ويأخُذ معارفَ وجهه بالا تنمّ على ما فى قرارة نفسه ؛ وانك لتحدّثه فى الجلّى وَيحدّثك فيها وهو متطلّق الوجه ضاحك السن حتى ليكاد يملأ عليك المجاس أُنسا ومَراحا ، والله وحده يشهد ما فى جوف هذا الهيكل من ثوائر تهدّ أَعصى الرجال، وتدك أشمخ الأجبال ، حتى لقد دعاه بعض أصدقائه، وهو ما برح فى مطلع مناصبه، « بطرس المسلمين » !

ولقد بالغوا فى صمت أبى الهول وقدّروا أن من خلف هذا الوجوم الطويل سرا طويلا . أما ثروت فانه أحذرُ من أبى الهول وأحرصُ على دَخِيلة نفسه ، فان وجهه الضاحكَ منك لا لك ليقنعك بأن هذا الخَلْق لا يحقِن من السرّ كثيرا ولا قليلا .

ولو أن إنسانا حدّثك بأن لسان ثروت لم يسقُط من ثلاثين سنة بكلمة واحدة لا يريد هو أن يُطلِقها بكل معناها وما تتصرّف اليه من وجوه المغازى لما كان فى قوله متزيّدا ولا غاليا .

ولقد تُعوِزه مَوْهِبة الخَطابة والتفجّر بالقول؛ على أنه اذا آرتجلت عليه طارئةٌ خطابَ الجَمْهَرة أرسل الكلام ، فى أدقّ المواقف وأحرجها ، بليغا سلسا نيّرا يروعك برشاقته فى التحرّف عن كل ما لا يؤذَن به للسياسى وإن فُسِح فيه للخطيب .

وهو بعدُ رجل حَسَن المَلْقى كريم المقال وافر الأدب .

جمُّ التواضع والدنيا بسؤدده * تكاد تهتزّ من أطْرافِها صَلَفا

وإنه ليُقبل عليك بكل ما عنده من الرقة وإظهار المودّة وشدّة المواتاة حتى لتجدنّه قد أصبح قطعة من قلبك ؛ ولتحسبن أنك أصبحت أيضا قطعة من قلبه ، ولعلك لست منه فى شىء أبدا !

وسبحان من قسَم الحظوظ ! فلو أن لى أمنية فى خلق الله لتمنّيت عليه تعالى أن يمزُج عدلى بثروت ، على نحو ما تمتزج بعض النقابات والبنوك ، حتى اذا اتحدا وتمت « لخبطتهما » أحدهما بصاحبه شق هذه العجينة الى شخصين ، وسوّى منها رجلين ، إذًا لخرجا أحسنَ الرجال ، ولتحقق كل ما عُقِد بهما من الآمال ؛ اللهم آمين ! ...

* * *

وقد بدت مخايل النجابة على عبد الخالق ثروت طفلا حتى اذا آستوى لِسِنّ التعليم سُلِك فى المدرسة التوفيقية فكان يملِك (الأوّلية) غالبا على سائر لِدَاته التلاميذ ، وأحرز « البكالوريا » فى سنة ١٨٨٨ ، وخرج فى أوائل من أحرزوها لِعَامِهِ . وقد حدّثنى من رآه تلميذا فى مدرسة الحقوق يزور مع والده المرحوم اسماعيل باشا عبد الخالق عالما من أجلّ علماء عصره ، فاذا هذا الفتى يجادله فى أمور من أمور الدين مجادلةَ الأكْفاء ، ويحاوره فى تعاليل أحكامه محاورة النُّظَراء ، حتى انبعث لسان الشيخ العظيم بتسبيح من خلق هذا الغلام !

وبعدَ إذ تخرج فى مدرسة الحقوق نابغة رائعا اتصل بلجنة المراقبة القضائية وعُين سكرتيرا للمستشار القضائى فكان كل التشريع المصرى قَرَابةَ ثلاثين سنة من وضع عبد الخالق أو باشتراكه ؛ فليس عجيبا أن يُدعى عبدُ الخالق ثروت فى هذا البلد أبا القانون .

وكان مستشارا فى الاستئناف ، وكان مديرا لأسيوط ، وكان نائبا عموميا ، ثم كان وزيرا للحقانية فى وزارة رشدى من صدر سنة ١٩١٤ الى صدر سنة ١٩١٩ ثم استقال مع صَحْبه الذين استقالوا مشايعة للثورة وحفَاظا لنهضة الوطن . فكان فى كل المناصب التى وليَها لا يعمل إلا بالقانون ولا يُؤْثِر إلا حكمَ القانون مهما آختلفت عليه ألوان الاعتبارات ؛ فقد آتصل القانون بعَصَبه وجرى فى نفسه مجرى دمه ؛ ولعل ما أُخِذ به ثروت باشا بعد إذ اضطلع بأثقل عِبءٍ سياسى من تردّده فى بعض مواطن الإقدام ، إنما كان الوِزْر فيه كله على حرصه على القانون وتحرّيه ألا يتجرّف عنه فى كل مذاهبه ، فان للسياسة أحيانا سبيلا غير سبيل القانون . وعلى كل حال فاذا عدّت السياسة هذا على ثروت فسيعتدّها له النبل ومعالى الخلال .

وكان ثروت وزيرا للداخلية فى وزارة عدلى باشا (سنة ١٩٢١) وقائما مقامَ رئيس الوزراء فى أثناء غيابه فى مفاوضة اللورد كرزن ، فلما قَطع عدلى باشا هذه المفاوضات عاد الى مصر فقدم استقالة الوزارة . واستوحش ما بين مصر وانجلترا ، وسكت المنطق من حيث تكلم الحديد والنار ، وآنطلقت القوة تفعل فى هذا البلد ما تشاء ، وفُتِنت الأحلام فى مصر وانجلترا معا ؛

وعُمِّيتْ على الناس مذاهب الرأى هنا وهناك . ولا بد من حل، فلكلِّ سائلةٍ قرار، فأبى داهية الرجال أن يكون هذا الحلُّ على حساب الضعيف ! ...

لا أدرى ولعل أحدا غير الله لا يدرى كيف كان أبو الهول يقلّب الرأى ، وما كانت تُجِنّ خَلَجاتُ وجهه من فنون الحيل، حتى اذا آستوى له الرأى كلُّه تجمّع فضرب تلك الضربةَ الهائلةَ التى صدعت قيود مصر وأطلقتها فى الدول دولةً مستقلة ذاتَ سيادة وسلطان، وسُرْعان ما آذنت انجلترا الدولَ بانتهاء حمايتها على مصر، وسرعان ما آذنها جلالةُ الملك باستقلال البلاد . وشرع ثروت باشا يسنّ للدولة دستورا قويا لأن مصر الفتاة تأنَفُ العيشَ إلا فى كَنَف برلمان . وهذا البرلمان يعمل وسيعمل إن شاء الله حتى تحيا مصر أعلى الحياة .

على أنه ما برح بيننا وبين انجلترا مسائلُ جليلةٌ، وإن رجالا فيها ليتربصون الفرص ليتحيّفوا من حقوقنا؛ فما أحوجَنا فى أمرنا معها الى عزم الأبطال . وما كان الله ليخيب رجاء مصر وفيها سعد، وفيها عدلى، وفيها ثروت، وفيها من يُحَفُّ بهم من رجالات عظام .

فلتحى مصر ولتبلغْ كلَّ أمانيها فى ظل ائتلافها النبيل .



ثــورةٌ فى هيْكل رجُل !

ابراهيم الهلباوى بك

ما صدق أولئك النَّفَر من العلماء حين زعموا أن هناك تشابها بين النفس والجسم ، وتشاكُلا بين الروح والهيكل الذى يحتويه ، و إلا كان الهلباوى هـذا من أحلى الناس وجها وأبهاهم طلعة ... ... فإنه ولا مِرْيَة من ألطف خَلْق الله نفسا وأخفّهم رُوحا ... ...

شيخ يَتَزَاحف على السبعين إن لم يكن قد اقتحمها فعلا ، لم تُوَجِّه الطبيعة أية عناية فى تكوينـه الى شكله وَدَلِّه ، فاذا أنت جلست اليه مع هذا خلبك بلطفه ، وشعَرت بأنه تَسَرَّبَ فى كل نواحى قلبك حتى أصبح قطعة من نفسك . و إنه ليذكّرك بخفة روحه التى تكاد تطير ، أثناء حديثه ، بأطراف جسمه — قولَ أبى تمـام :

ماذا تقولينَ فى شيخ فتًى أبدا * وقد يكون شـبابٌ غيرُ فِتْيـانِ

وأنا اذا تحدثت عن الهلباوى أشعر و يشعر الناس معى ، برغم أنفى وأنف غيرى ، أننا فى رجل غير عادى ، أو بعبارة أخرى فى رجل عبقرى .

ولعـله لم يفْتَرِق النـاس فى هوى امرئ — اذا استثنينا اسماعيل باشا صدقى — افترَاقَهم فى الهلباوى ، فقد عاش مدى عمره يحبه ناسٌ أشدَّ الحب ، ويُبغضه ناس أشد البغض ، الا أن هؤلاء وهؤلاء لا يسعهم جميعا الا التسليم بأنه رجل عبقرى ؛ بل لعله لم يجتمع له فى القلوب كلُّ هذا الحب وكلُّ هذا البغض الا لأنه رجلٌ عبقرى !

طويل القامة، عظيم الهامة، بائن الطول، مفتول العَضَل، شديد المُنَّة [١] قوى البنية . رأيته يَخْطُبُ الناس عصر يوم قَدِم فى صباحه من أعلى الصعيد، والهلباوى اذا خطب خطب بِكُلِّه : بلسانه، و بعقله ، و بُخَاعه ، و بعَصَبه ، وبرأسه، و بيديه، و برجليه أيضا ! وله صياح يَقُدّ أصفَقَ الحناجر . ثم تدلَّى عن المنبر بعد أربع ساعات كاملات فى كل هــذا البلاء وهو أشدُّ وأفْتَى من أكثر مَنْ سمعوه ان لم يكن أفتى ممن سمعوه جميعا . وما شاء الله كان ! ...

شديد العقل، حاضر البديهة، قوى الذاكرة، ملتهب الذكاء . على أننى لا أدرى أتفى كل هذه بحاجات لسانه أم لا ؟ ! ...

محام أىّ محام، وخطيب أىّ خطيب ! لقد يقف فى الجَمْهَرة والنــاس أكثرُهم على غير رأيه فيما يجول فيــه ، فمــا يزال يدور على مواطن إحساسهم يجُسُّها من ههنا ومن ههنا فى رشاقة وخفــة قول ، ولطف شاهد ، وبراعة نكتة ، حتى اذا آنس من الآذان تطامُناً من جِمَاح واسترخاء بعــد عصيان ، هجم منها بكُلِّه على النفوس فظل يَهُزُّها هزا ، ويرُجُّها رجا . فمــا الفَحْل اذا هَدَر، ولا اللّيث اذا زأَر ، ولا البحر اذا زَخَر، بأشدَّ صَوْلة على الأسماع من الهلباوى يتدفَّق فى الكلام، فما يروعك من هذه الجماهير الواجمة الا أن تراها، برغمها، قد أرسلت حناجرها بالهُتَاف وبعَثَت أكُفَّها بالتصفيق !

والهلبــاوى خطيبا يَشْــترِى هَوَى سامعيه بأى ثمن : فهو يجِدّ ويهزِل، ويثِب ويحجِل ، ويَضحك ويَبكِى ، ويعــلو ويُسِفّ ، ويثقــل ويَخِفّ ،

(١) المنــة : القــوة .

ويكثُف ويشفّ . وينظم الدرر ، ثم يرمى بالشرر . وبينا تراه فى وَدَاعَة العُصفور، اذا به فى شراسَــة النُّمُور . كذلك يتشكّل هــذا الشيخ فى خُطَبه ويَتلوّن لكل مواقع الكلام !

واذا كان الهلباوى خطيبا عظيما فهو ممثّلٌ أعظم !

* * *

نَجَمَ الهلباوى من أسرة فى الغربية كريمة العِرْق الّا أنها رقيقةُ الحال، فلما يفَع قذفت به الى الأزهر فعكَف على مدارَسَة علومه، وقد عُرِف بين لِدَاته، من صدر أيام الطلب ، بالفِطنة وحدة الذهن والاِكْبَاب على تحصيل الدرس . وعلومُ الأزهر، كما تعرف، تقوم على الجَدَل والمكاثَرَة بألوان التّدليل، وكان الهلباوى فوق « أزهريتــه » تِيكَ عنيدا فى رأيه مُلِحًّا حتى على أشياخه فى حِوَارِه، جريئا على مخاصمتهم فى كثير مما تَسْقُط عليــه أفهامهم فى مذاهب الكلام .

وهَبَط المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى مِصرَ فاتصل به الهلباوى كما اتصل به كثير من أهل المواهب والذكاء . وكان يُعلّمهم مسائلَ من الحكمة، ويلقّنهم فصولا من فلسفة اليونان كما نقلها العرب عنهم . وقد مَدّ السيد الأفغانى أذهان طلَبته الى كثير مما يُحيط بهم، فَفَجّر عقولهم، وجَرّأ قلوبهم، ودرّب ألسِنتهم على المنطق والمغالبة بفنون الجَــدَل ، وعوّدَهم الجهر بالرأى دونَ الخوف من أحد . وفى ثنايا هذا كله كان يَبْعَث فى نفوسهم دَعْوَة سياسية جريئــة .

وخرج الهلباوى بعد هذا الى مَيْدان العمل فاتصل اتصالا أَوْفَى بالبِيئَات التى تَفَهَّمَت حياة الغرب وتَروَّت علومه الحديثة وأخذت أحلامها بمنطقه الطريف. وهكذا أصبح الهلباوى خليطا من كل ماتَقَلَّبَ فيه من أطوار الحياة!

وما اجتمعت هذه الأسباب كلها فى نَفْسٍ الا اضطرمت وثارت فلا تعود تستريح الى قرار . فلا عجب اذا كان الهلباوى ثورةً دائمةً فى هيكل رَجُل ؛ والبركانُ دائم الفَوَران، فهو ينفجر من حين الى حين وإن احْتَقَن الى حين .

ولقد يكون ما يظنه كثير من الناس تردُّدًا فى الهلباوى أثرا من آثار هذه الثورة النفسية، فان الثورة لا تعرف نظاما ولا تستوِى فى شبوبها لطريق .

ولعل موقفَه يوم دِنشَواى كان مظهرا من مظاهر هذه الثورة ، على أنها هذه المرَّة كانت أدنى الى تَحَدِّى الجمهور منها الى ما اعتاد من تحدِّى السُلَطَاء من أهل الحُكْم ؛ وفى كل حال فقد كانت منه كبيرةً، ولعلها كانت سقطةَ الرجل العظيم .

على أن أحدا لم يَجْرؤ على أن يُحِيل تردُّدَ الهلباوى، الذى قالوا، على طلب منفعة شخصية من منصِب أو جاه أو مال .

* * *

وقد صحِب القضاءَ المصرىَّ الحديث ودَارَجَهُ من أول نشأته الى اليوم، فلم تكد تقع قضية ذاتُ شأن فى البلاد إلا دُعِىَ لها الهلباوى فافْتَنَّ وأبدع؛ وله فى هذا الباب جولات معدودة له على وَجْهِ الزمان . فلا عجب اذا عُدَّ صحيفةً من أحفل صُحُف القضاء المصرى وأظهرِها حواشِىَ ومتونا .

وقضى هذا الزمنَ الطويلَ محاميا واضحا أمينا مُجِدًّا فى عمله حريصا على أداء واجبه، لم تُحْصَ عليه كَرَّة واحدة مما يَخْدِش وجه المحاماة .

ثم هو فى علاقاته الشخصية شديدُ التَوَافى لأصدقائه حريصٌ على مودّتهم لا يقصر فى أداء أىّ واجب لأىّ كان منهم . ولا أحسب الهلباوى قد عادى أحدا أو عاداه من الناس أحد إلا فى شأن عام .

وإنى كلما جاش فى نفسى الحِقد على الهلبـاوى بك هرولت الى مجلس النواب فشفيت صدرى برؤيتـه ، بعد كل ذلك ! ، وقد امتثل حقا لحكم النظام، فهو يرفع اِصبعه بطلب الإذن كلما أراد القعود أو القيام، وكلما أراد السكوت أو الكلام، وكلما طلع أو نزل، وكلما عطس أو سعل، وكلما تحرَّف أو تخطَّى، وكلما تثاءب أو تمطَّى ، وكلمـا دَلَكَ أكارِعَه ، أو فَتَلَ أصابِعَه . ولا بد من الخضوع والطاعة ، لكل من ينتظِم فى سِلك الجماعة ؛ وإلّا ساء النظام، واضطرب حبل الأحكام !

وكذلك أخمَدَت الحياة النيابية، هذه الثورة الشيخة الفتية .

وإنى اذا لم أصفه فى موقفـه الجديد بأنه أصبح « كالوحش يستدنيه للقَنَصِ المَحْل » ، فإنى أقول له : « ولا بدَّ دونَ الشهد من إبَرِ النَّحْل» ! ! !



ليسَ على الله بمستنكرٍ * أن يجمعَ العالمَ فى واحدِ

الدكتور محجوب ثابت

لا شك فى أن الدكتور محجوب ثابت يعدّ، بحق، فى ميراثنا القومى، ولو — لاأذن الله — جرى عليه القَدَر لكان لا بد للأمة من (دكتور محجوب ثابت) بأى طريقة من الطرق . نعم هو فى ميراثنا القومى لا يقلُّ عن آثار سقَّارة، وجامع السلطان حسن، ومقابر الخلفاء . ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل، ووفاء النيل، وركبة الرؤية، وشم النسيم ! .
ولما فكَّر المرحوم محمود بك رشاد فى جعل العَلَم المصرى محلًّى بصور بعض الآثار القديمة فرعونيةً وإسلامية لم يرَ المصوِّر بدّا من أن يرسم بجانب الهرم وأبى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبى السعود صورةَ الدكتور محجوب ثابت .

والدكتور فى المصريين كانجلترا فى الأمم، كل منهما يرى عليه للآخرين تَبِعات لا تنقضى على وجه الأيام ! فاذا كان الكلام فى النيل وما عسى أن يجتازه عن مصر خزانُ مكوار تولّى « الدكتُور » الكلامَ وملَكه على جَمْهَرةِ المهندسين ! وإذا كانت الثورةُ تصدَّر الدكتور لجنةَ الوفد المركزية، وكلما آنتشرت فى البلد مظاهرة كان ناظُورتَها[1] الدكتور، وكلما ساروا « بضحيةِ حرِّية » كان الدكتور أوّل المشيّعين ، فاذا كان اجتماع فى الأزهر كان الدكتور فارسه المُعْلم وعُذَيقه المرجَّب . فاذا تعانق الهلال والصليب، استأثر

---

(١) الناظورة : سيد القوم المنظور اليه منهم .

الدكتور من عناق الأب سرجيوس بأكبر نصيب . فاذا وَجَدَ دَهْمَاءُ المصريين على الأرمن وهمّ بعضهم بإيقاع الأذى بهم طاف الدكتور بعربته (ومكسوينيه) على دورهم فنقلهم وعِيالَهم ومتاعهم وأثاث بيوتهم الى مأْمَنِهم. فاذا غضب الأروام من أن بعض الرعاع أصابوا منهم على وَهْم أنهم أرمن، شَخَص الدكتور فى الرَّكب الحافل إلى دار قنصلهم فخطب جَمْعَهم باسم مصر ومادّهم حبالَ المودّة، وعقد معهم، باسم الأمة والحكومة أيضا، فنونَ المعاهدات . واذا كان جمع الأموال للوفد أغلق الدكتور عيادته « بالضبّة » وهاجر الى قنا فلبث الأشهر الطوالَ، يجمع ما تحتاج اليه القضية من جليل الأموال . فاذا كانت مشاكل العمال أبى الدكتور الا أن يتفرّد بها من دون الناس جميعا، فانتفض نقيبا لعمال العنابر، ولفافى السجاير، وسواقى الأتومبيلات، وشيالى المحطات، ونُدُل[1] الفنادق والقهوات، وجميع طائفة المعمار، وأصحاب الحوانيت من كل بدال وبقال وجزار، وعمال المطابع، وكناسى الشوارع، وصُنّاع الخيم، ومساحى (الجزم) ؛ ولو فكرت طوائف الجُرْذان والسنانير، وجماعات الجِعْلان والصراصير، فى أن تتخذ لها نقاباتٍ لتمثّل الدكتور ثابت فيها خطيبا، ثم استوى لها بفضل الله نقيبا !

وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل ما فى البلد من هابط وصاعد، وقائم وقاعد، وغاد ورائح، وسانح وبارح، ودارج على متن الغَبْراء، وسابح فى جوف الماء، وطائر فى جوّ السماء . فاذا كانت هنالك منطقة خارجةٌ عن اختصاص الدكتور محجوب فهى عيادته فقط ! ذلك بأنه ليس

(١) الندل : الخدم .

برجل أَثَرَة، بل هو رجل إيثار يُعنَى من أمر قومه بكل دقيق وجليـل ، أما خاصة شأنه فلا يعنيه منها كثير ولا قليل .

ولا أحسب رجلا فى مصر ولا فى انجلترا مشغولا بالسودان شُغْل الدكتور ثابت[(١)] ، فحديث السودان يجرى منـه مجرى النَّفَس، ولو هُيِّئ له ، أو لو هيئ لك أنت، على الأصح، أن تستمع له لحدّثك فى شأن السودان ثلاثين عاما متَّصِـلة لا ينقطِع ولا يتحبَّس ، ولا يتلجلج ولا يتلعثم، ولا يَمَلّ ولا يكِلّ، ولا يُبْطِئ ولا يَزِلّ .

وللدكتور فى مشكلة السودان نظرية طريفة جدا، فانه يرى أن كل العقدة فيها إنمـا هى فى إقناع المصريين وحدهم بقبوله وإدخاله بلا قيد ولا شرط فى ملكهم الخالص، فهو كلما رأى رجلا أو امرأة أو صبيا أو وليـدا أقبل عليه « يقنعه » فى قوة وحماسة بقَبول السودان ، وتدفَّق ما شاء الله أن يتـدفق بألوان الحجج لحق مصر فى السـودان وحاجة مصر الى السودان ، وما أنفقت مصر على فتوح السودان ، ومن أبلَى من أبناء مصر فى حروب السودان . ولو أن رجلا مسَح السودان شِبرا شِبرا، وذرعه فِتْرا فترا، ما كان أعلم به من الدكتور ثابت ، على أنه لم يَرَه ولم يزُرْه طول حياته مرة واحدة . وقال له بعضهـم يوما : لقد جعلت السودان شُغلك يادكتور حتى أصبحتَ رمزَه فى هذه البلاد، فهلَّا زرته وتفقَّدت أهله؟ ففتَل عُثْنونَه وقال: لا حاجة بنـا الى هذا فقد عرفناه وخبرناه ... ولا أدرى أكان هذا من الدكتور ورَعا أم كسلا !

(١) وكان هذا قبل أن ينتخب عضوا فى مجلس النواب .

ويظهر أن الدكتور ظن بعد لأْيٍ أن المصريين غيرُ مقتنعين بضرورة «أخذ» السودان فشخَصَ إلى سوريا ليقنع أهلها بضرورة «أخذ» المصريين للسودان! فقد بلغنى أن ذلك كان حديثَ الدكتور هناك فى مسائه وصباحه، وغدوِّه ورَوَاحه؛ وموضوعَ مفاكهاته وأَسْماره، فى مُقَامه وتَسْياره .

ورَأْى الدكتور فى « أخذ » السودان أبدع من رأْيِ ذلك الفلاح المُكَارِى إذ قال لاخوانه يوما : كيف لا تهنئوننى؟ فقالوا : بماذا؟ فقال: بأننى سأتزوج بنت السلطان! فقالوا له : وهل قُضِىَ الأمر؟ قال: بل نصفه؛ فاننى وأبى قد رضِينا ولم يبق الا هى وأبوها ! ... أما الدكتور — أعزه الله — فانه لا يرى بين المصريين وبين أخذ السودان كاملا بلا قيد ولا شرط ، ومن فوقِهِ ملحقاتُه وملحقاتُ ملحقاتِهِ الا أن يرضَوْا هم ! ... وقد قلت له يوما : ألا جعلتَ بعض همِّك إقناع الانجليز أيضا بترك السودان لأصحابه المصريين ؟ فاجابنى بكل قوة وثِقَة : لا ! ما يقولوش حاجة !!!

حقًّا إن هذا الرجل أمةٌ وحْدَه، وانه لعبقرِىٌّ لا يتدلَّى الى منطق الناس وأسباب تصوُّرهم، فإن له قياسه وتقديره، وله منطقه وتفكيره ؛ وله أسلوبه وتدبيره . وأظهر صفاته فى هذا الباب أنه لا يحفل بما يسمونه الواقع كثيرا ولا قليلا، فحسبه أن يشتهى الأمر فيقدِّره واقِعا، أمكن ذلك الأمر أو استحال، ومِثله من تخيَّل ثم خال . ولقد كان فى سنة ١٩٢١ يسعى جاهدا فى أن ينتظم عضوا فى الوفد المصرى، وقد وسوس له شيطان من الإنس بأن عدلى باشا

فكّر فى تعيينه مستشارا فى الوفد الرسمى لولا أن انتهى اليه أن سعد باشا سيلحقُه بالوفد المصرى ، فكان جوابه على الفَوْر : مافيش مانع ياسيدى ! وهكذا طَمِع الدكتور فى أن يكون عضوا ، معا ، فى الوفدين المتقاتلين سنة ١٩٢١ !

وأذِن الله ودخل الدكتور فى الوفد المصرى طبعة ثالثة أو رابعة ، بعد ماعصَفَت القوة بِجِلّة رجاله سنة ١٩٢٢ ؛ ثم بدا له ، لأمر ما ، أن «يشلحه» فكانت تخرج النداءات والمنشورات ممهورة بتوقيعات رجال الوفد وليس اسم الدكتور فيها اذ الدكتور مصمم على أنه ما بَرِح عضوا فى الوفد يلتمس « لعضويته » المعاذير بأنه ربما دُعِىَ للتوقيع فغاب ، أو أُرسل اليه فلم يبلُغه الكتّاب ، على حدّ قول الشاعر :

نحن قوم اذا دُعينا أَجَبْنا * واذا نُنْسَ يدعُنا التط ...
ونقلْ علّنا دُعِينا فَغِبْنا * وأتانا فلم يجِدْنا الرسولُ !

وظل الدكتور برغم طول المَدَى وذُيوع الأخبار « بشلحه » مصمما على أنه مازل عضوا فى الوفد . وقد جادله بمحضرى فى ذلك قومٌ فكانت كل حجته أن محمد افندى كذا قابله يوما فحياه وقال له : « يعنى ما حدش بيشوفك يا دكتور ؟ ! » ومحمد افندى هذا يزور السيد حسين القصبى أحيانا ، فلا بد أن يكون سَمِع هذا من الوفد ، فكيف تزعمون بعدها اننى لم أبق عضوا فى الوفد ؟

هـذا كلام له خَبِىءٌ * معناه ليستْ لنا عقولُ !

ومن أظرف نوادره أنه فى غيبة الرئيس الجليل حدثت بينه وبين بعض رجال الوفد جَفْوة، فانقطع عن زيارة بيت الأمة، فقيل له : إن السيدة أنيسة الرشيدى نازلة بدارك وهى تستقلُّ كل يوم مركبتك الى بيت الأمة، والناس كلهم يعرفون « مكسويني » وإنهم ليرونه هناك فلا يشكُّون فى أنك الزائر ! فقال : لقد نبهنا على الأوسطى « على » اذا نزلت السيدة أن يقف على الرصيف الثانى احتجاجا !

وكانوا يرشحون لمناصب المفوّضين والقناصل لتمثيل مصر فى البلاد الأجنبية، فتقدّم الدكتور، فقيل له : ولكنك حَذَقْت الطب، أما التمثيل السياسى فشىء آخر، فقال : ومن أَخبرُ به منا يا ولدى ! لقد عجنّاه وخبزناه فقد كنا فى (جنيف) وكان يجلس معنا أحيانا على بعض قهواتها سكرتير قنصل انجلترا وتناوَل الشاى معنا مرارا ! ...



والدكتور محجوب ثابت عريض الألواح بعيد مَدَى العظام لولا أن فى جسمه رُهُولةً، أميل الى الطول، فاذا مشى خلته أحدبَ وما به حدبة، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل السنين، عريض الجبهة الا أن أسفل وجهه أعرض من أعلاه . يرسِل سَبَلَتَه وعُثْنونَه وشعرَ عارِضَيْه فى هيئة لطيفة مقبولة ؛ وله عينان رقيقتان ترتسم فى بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى الى انسانها، وهما دائمتا الحركة والاختلاج . وهو بعدُ طيب القلب، مكفوف الأذى، عذب الروح، حلو الحديث،

ضحوك السن، يتحرّى فى قوله غريبَ اللغــة، ويلتمس الشاهــد من مأثور شعر العرب، وقد يجىء به أحيانا مكسورا غير مُتَّزِن . أما قافاته فحدّث عنها ولا حرج . جُزْتُ بداره مرة فرأيت بنتين صغيرتين تتلاعبان، فقالت احداهما للأخرى : هــذا بيت الدكتور، فسألتها : ومن الدكتور؟ فقالت لهــا : ألا تعرفين الدكتور الذى يقول يا بنت هاتى القِبرة ! (الإبرة) .

وفيــه ذكاء حادّ، يديم القــراءة والنظر فى الكتب وكأنه يحفظ بظهــر الغيب كلَّ ما يقرأ ، تعرف هــذا من علمه الواسع الذى يكاد يســتغرق كل ما فى الدنيا وكل أسبابها، الا أن علمه، مع الأســف، يختلط بعضه ببعض حتى ليخيل اليك أن رأسه «كتبخانة مدشوتة» . ولو قد ملكتُ أمره، وكانت لى بسطة فى المــال والســلطان لدعوت بمستشرق ألمــانى فنّى لينظم هــذه المكتبة العظيمة فيضم كل شَكل الى شَكله ، ويجمع كل جنس الى جنسه، ويرد كل معنى الى بابه، ويصفّ كل فن فى « دولابه » .

ومن أخص صفات الدكتور ثابت أنه لا يكاد يشعر بمرور الزمن، واذا كان من آية يوشع أن الشمس رجعت له مرة، فان من آية دكتورنا عنــد نفســه أن الشمس تثبت له موضــعَها على طول الزمان ، فأنت اذا دعوته ليتنــاول الغــداء معك أقبــل عليك الساعة ٥ بعــد الظهر حتما فى غير وَرَع ولا اعتذار . ولقد دعاه صديق لى وله لتناول الافطار فى رمضان ولبثنا ننتظره برهة فلما أيِسْنا منــه أفطرنا، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبــل الدكتور مشمّرا للفطور، وما كان أشد دهشته « يقينا » اذ علم اننا أفطرنا من أربع ساعات فانطلق يزبجر و « يزوم »، ويعتب ويلوم !

ومما يذكر للدكتور فى هذا الباب أنه ما أدرك قط القطار الذى يعتزم السفر فيه، حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه اذا آذَنَهم بالسفر الى بورسعيد فى قطار الساعة ٧ صباحا شَخَصوا إلى المحطة لتوديعه فى قطار الساعة ١١، واذا آذنهم بالسفر إلى الاسكندرية فى قطار المفتخر كانوا فى وداعه بقطار الساعة ٧ مساء .

وسافر مرة الى الاسكندرية لوداع الآنسة سنتيا موير الصحفية الأمريكية وأخذ تذكرة للذهاب والإياب على أن يعود من يومه فلبث هنالك قَرَابَة شهرين ونصف شهر .

ولو قد ذهبنا نعدّد لطائف الدكتور محجوب وبدائعه، لما اتسع للحديث مثل هذا المقال . وإنه ليجمل بنا فى موضع الإنصاف أن نقرر أن الرجل شريف النفس، عفيف الجيب، جمع للنهضة المصرية من مديريتى جرجا وقنا قَرابة خمسة عشر ألف جنيه أبلغها كلها مِحلّها لم يقتطع منها درهما واحدا حتى ولا لأجرة القطار وسائر نفقات السفر وهى غير قليلة؛ فضلا عما احتسب عند الله من خراب الأجزاخانة ودمار العيادة وفِرار الزباين وسرقة شبابيك الدار .

وهو لا يتعمّل للدرهم ولا يجرى وراءه ! أما اذا سقط الدرهم الى جيبه فلا الى رُجْعَى ، فمثله فى ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفار ؛ فاذا سقط اليها الفار ، فهيهات ليس له منها فِرار. وله فى هذا الباب أحاديث مذكورة، وأفاكيه منشورة .



وبعد فالدكتور محجوب ثابت أمةٌ وحدَه بما اجتمع له من الصفات، وما احتشد لديه من فنون المعلومات، وما تكدَّس عليه من ألوان التَّبِعات . وهو اذا اعتبر لنفسه حق التحدُّث على كل شيء، والدخول فى كل دقيق وجليل من شؤون البلاد، فقد وجب بازاء هذا أن يكون لكل مصرى فيه نصيب . وانى لأقترح على الحكومة أن تُصدِر قرارا بنزع ملكيته واضافته الى المنافع العامة، ولعلها، بعد العمر الطويل، تجعله من نصيب دار الآثار، حتى يظل رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الأعصار !

الدكتور محجوب أيضاً (١)

وإن الحديث لَيَحلو دائماً فى الدكتور محجوب راسباً فى الانتخاب ، وعضواً فى مجلس النوّاب ؛ كما يحلو فيه مُلِحّاً فى طلب السودان ، ومشغولا عنه بالكلام فى السِّماط والخِوان . وانى لأوفِّر هذا الحديث على عتاب صديقى صاحب « الكشكول » على قسوته هذه الأيامَ على الدكتور وإغلاظه القول فيه بعض الأحيان . والأستاذ فوزى يداين صاحبَه بقسط كبير من نجاحه فى الانتخاب ، فلقد طالما أيده بشديد القول فى جريدته القوية ، كما آزره بشخصه فى الاسكندرية إذ حَزَبَ به الأمْرُ وأعوزه النصير .

والأستاذ انما ينقِم من الدكتور أنه حين استوى على كرسىّ فى مجلس النوّاب تكَرّش لسانه فى شدقه وتقبّض ، فلم يعُد يهتف بالسودان ولا بملحقات السودان ولا بشىء مما كان يُمَنِّى به ناخبيه ، ويصدّع به رءوس المختلفين الى (صولت) ، وقهوة الشيشة ، ونقابة العمال ، ومطعم (الكوارع) ، وحلوانى محطة الرمل ؛ والمتردّدين على عيادته من كل أرْمد العين ، ومضروب بالفالِج ، ومقروح الكَبِد ، ومن خرج به جَرَب أو بَرَص ، وشاكٍ مرضَ القلب وخفقَانه ، أو وجع الضرس وضَرَبَانه ؛ ومَصْدُورة تدارك بالعلة زفيرُها ، وماخِض علا صياحها وزَحيرُها . وحين أظْفَره ناخبوه بمقام النيابة نسِى وعودَه المعالَجَةَ بالسمن والعسل ، وخَفَر عهودَه لأهل

(١) مقتبس مما نشر بجريدة السياسة اليومية فى احدى (ليالى رمضان) بمناسبة حملة الكشكول على الدكتور محجوب .

مينا (البصل) ؛ وترك حديثَ السودان فى مجلس النوّاب ، وأقبل على حديث (الكنافة) والكباب ، وترديد ذكر الفطائر المدحُوَّة ، والقطائف (المحشُوَّة) ؛ والدَّجاج والسكابيج ، والدُّرّاج والطهابيج ؛ والحُمّان المحمّرة ، (والطوجن المعمّرة) ؛ وكل ما يعالَج بالسمن أو بالزيت، وما يصنع فى السوق وما يُطهى فى البيت !!!

وما خَفَر الدكتور بالذمة، ولا خَاسَ بعَهده للأمة ؛ فانما كل همّ الدكتور كان من أمْر السودان أن (يقنِـع) المصريين بضرورة أخذه ؛ وقد سَعَى الرجلُ فى هذا ودعا ولبث فى دعوته يَبِيكَ سنين طوالا لا يكِلّ ولا يَمَلّ ، ولا ينقطع ولا يحتبس ؛ ولا يتَتَعتع ولا يَعثُر ، ولا يسكن ولا يَفْتُر ، حتى اذا آتت دعوته أُكُلَها (واقتنع) المصريون كلهم (تقريبا) بأن السودان ضرورى لهم وبأنهــم لا غنى لهم عن ماء النيل ، شمّر ذيله وطار الى سوريا وظل دهرا يُفْشى فيها دعوته ، حتى إذا آمن السوريون كذلك بأن السودان ضرورى للمصريين عاد فأمسك عن القول فى السودان وملحقات السودان . وما له يقول فيــه بعد أن بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ؟ ولو كنتُ لعَمْــرى مكانَه لطلبتُ الى الأمة إحالتى على المعاش وأثبت فى بطاقة زيارتى :

الدكتور محجوب ثابت
مطالب بالسودان سابقا وعضو مجلس النوّاب حالا

وحسْبُ الرجل خدمةً للأوطان، أن (أقنع) المصريين بحاجتهم الى النيل وحاجتهم الى السودان ! و «الوطنية» كما تعلم فنون ، ولله فى خلقه شئون !!!



فيـــهِ شِــفَاءٌ للنَّاس

الدكتور على بك ابراهيم

رقيقُ الجسم، أدنى الى أن يكون هزيلَه، أسمرُ اللون، مستطيلُ الوجه، غليظ الشفتين فى غير قُبح، واضح الثنايا، لعينيه بريق وفيهما جمال. متفخِّم اللفظ، تاؤه بين التاء والطاء، وزايُه بين الزاى والظاء، وادِعُ النفس، هادئ السعْى، خفيف الروح، ظريف المجلس، لا يجد العُنْف الى عواطفه سبيلا؛ يَقصِد فى طربه، كما يَقصِد فى غضبه:

فيــــه حَدُّ الفتى وحِلم المزكَّى * وحِجَى الكهلِ وارتِياحُ الغلامِ

ولعل هــذا الهدوء العجيب من أبلغ العناصر فى نجاحه فى عمله المرعب الدقيق. وشأنه كشأن جميع النوابغ فى الدنيا: ليس لهم من مظاهرهم مايدل على أخطارهم، إلا أنك لا تستطيع ألّا تلحظ أن لهــذا الرجل أصابعَ ليست من جنس أصابع سائر الناس، فانها تســترعيك بطولهـا وسَرَاحتها وانسِجام خَلْقها؛ على أنه اذا تحدّث رأيتَه يستعين دائمـا بسبابته ووُسطاه فمـا تزالان كالمِقَصّ فى انفراج والتِئام الى أن يفرُغ من حديثـه، حتى إنك لَتَعرفه من أصابعه كما تعرفه من وجهه، ولو قُدِّر لمصوّر أن يرسم أصابعه وحدها لدلّت عليه الى غاية الزمان.

لقد تسنم غارِبَ المجد، و بلغ من الشهرة ما تتقطّع دونه علائق الآمال ، وهو مع هذا لا يحفِل قطُّ بما كان ولا بما سيكون ولا بما سوف يكون، ولا تحسبه يطمع فى أكثر من أن يعيش فى غَمْر الناس كسائر الناس .

ياله من رجل ! لقد تكون فى مجلسه معه غيرُك، ولقد تكون معه وحدَك وأنت مَفيض أسبابه ومطَّلَعُ سره؛ فتعرِض ذكرى فلان الجرّاح فيقول لك : «بالكْ فلان ده،ويومئ لك بأصبعيه سالفتى الذكر، ده والله جراح ماله مثيل! ده شيء من فوق التصوّر! لو كان للجدع ده بخت ما كانش حدّ زيه فى الدنيا!» يقول هذا فى رضًا وصِدق نفس وراحة أعصاب ! ... والواقع أننى لا أدرى أكان هذا كله قد جاءه من طبيعة صفّاها الله من كل ما يَتَدَاخل أربابَ الفنون، أم أنه تمكن من نفسه واستوثق من أنه لن يتعلّق أحد بغُباره مهما افتنّ لإخوانه الجرّاحين فى ألوان الشهادات ؟

ثم هو شديد العطف على إخوانه الأطباء عامة، عظيم العَون لجماعتهم، رَطْب اللسان فيهم .

ومن أظرف نوادره أن رجلا من كِبار الأغنياء قدِم اليه يشكو علة لا تتّصل بالجراحة؛ فقال له : يا عمّ لاشأن لى بمرضك فاذهب الى الدكتور فلان أو الدكتور فلان أو الدكتور فلان، فهم الذين يحسنون «تشخيص» علتك ويقدِرون على علاجك . فقال الرجل : بل إنما قصدت اليك أنت ولست أرضى أحدا يداوينى غيرك، وجئت معى بكذا وكذا من الأموال نخُذ منّى، على أن تعالجنى، ما تشاء ! فقال له الدكتور : وأنت اذا أعطيتنى ما تشاء

فلن أداوىَ علتك لأنها ليست من عملى ولا تتصل بفنّى إنما أنا رجل جرّاح؛ فألحّ الرجل وتضرّع، فلما أعياه أمره قال له : اسمع ياعم، لو تلِف (كالون) بيتك هل تجىء له بنجار أم بكوالينى؟ فقال بل بالكوالينى، فقال له : مرضك هذا أنا لا أعرف فيه، قال الرجل: فماذا تصنع اذًا؟ قال له : أنا أفتح لك كرشك، أكسر رجلك، أقطع رقبتك! . وهذا الذى أعرفه. فانصرف الرجل مقتنعا راضيـــا ! .

ولست أحاول أن أصِف لك قَدْر الدكتور على ابراهيم ولا نبوغ مبْضَعه، فحَسْبه أن سلم الناس اجماعَهم له بأنه مفْخَرة من مفاخر هـذه البلاد . ولقد قلتُ لأحد الأطباء يوما : صِف لى بَرَاعة الدكتور على ابراهيم؛ فقـال لى : أعرف أنك تحب الغِناء وتهوَى الموسيقى، ولو كان لك عِرْق فى فن الجراحة وقُدِّر لك أن تشهد "عملياته" لوجدتَ لأنامله من الطرب مالا تجده لأنامل «العقّاد» وهى منطلقة فى أوتار قانونه الحَنَّان الطروب .

على أن نبوغه لم ينته الى حَذْق الطب والمهارة البارعة فى فنّ الجراحة ، بل إن له فى كثير من « العمليات » ابتكاراتٍ من ذلك النوع الذى يُؤثَر ويُدرس ويُحدِث فى نظريات الفن أحداثا .

وإنهم ليروُون عنه جهدا عظيما فى متابعـة الحركة الطبية فى العالَم ، فهو كثير القراءة والنظر فيما يَخرج فى هذا الباب من المجلات والكتب والرسائل، حتى اذا وقعَت له نظرية حديثـة فاستوت لذهنه أقدم على تطبيقها بنفسه، فكان نجاحُه دائمـا كعزمه قويا جليلا .

*
* *

وبعدُ فإن جهلا أن يظُن امرؤ أن للعبقريات فى العالم أسبابا معينة معروفة ، فما كان هؤلاء العبقريون أصحّ من غيرهم أبدانا ، ولا أكثر قراءة، ولا أعكف من سواهم على الدرس والتجريب وتقليب النظر، ولا أطلبَ ممن عداهم لتلك الأسباب المفروضة للبراعة والتبْريز، فلقد كان البُحْتُرِىّ شاعرا فى سن العشرين كما كان شاعرا فى سن السبعين، وكان ابن المقفَّع كاتبا وهو ابن الثمانىَ عشرةَ كما كان كاتبا حين قُبِض وهو فى الثامنة والعشرين ، وكان رفاييل مصوِّرا رائعا يوم جالت يده بالنقش كما كان مصوِّرا فى غاية عمره ، وكذلك كان على ابراهيم جرّاحا أول مَنْجَمِه كما هو جراح اليوم؛ انما هى مواهب من الله تعالى يتخيَّرلها من يشاء من عباده لم يتكشَّف العلم عن كنهها ولا سببها الى اليوم .

وإنك لتجد الطبيبَ يُصيب دائما فى تشخيص العلة الا قليلا، وإنك لتجد الآخر يُخطئ دائما فى تشخيصها الا قليلا ، ووسائلُهما فى الفن واحدة ، وحظهما من العقل والعلم وسائر الأسباب متكافئة ! . ذلك أن هنالك حِسًّا دقيقا غير تلك الأَحْساس المعروفة يكاد يتفطّن به من آثره الله به الى مَطَاوِى الغَيب، فيقع الشىءُ فى نفسه يحسبه إلهاما لأنه لا يعرف له علة ولا يحيط منه بسبب، ومن هؤلاء الذين اصطنعهم الله لهذه الموهِبة الدكتور على بك ابراهيم .

ومما يذكر له أنه فى سنة ١٩٠٢ لُوحظت كثرة الوَفَيَات فى قرية موشة، من أعمال مديرية أسيوط، فندبه مدير الصحة ، وكانت له به ثقة عظيمة ،

ليُحقق الأمر، وكان بعدُ فتى ناشئا، فأدرك أنها الكوليرا، فكتب الى الصحة بهـذا وأرسل رَجيع بعض المصابين لتحالله، فلم ير « التحليلُ » أثرا للكوليرا، فراجعها وأرسل غيرَه، فكان الأمر كذلك، فصمَّم الفتى واستبدّ من ناحية، وصمم أطباء مصلحة الصحة وكيماويوها من ناحية أخرى ؛ ثم أبى العلم وأبى «التحليل» الصحيح إلا أن يُظهِر رأىَ على ابراهيم على تلك الآراء جميعا، وكانت الكوليرا التى عصفت سنة ١٩٠٢ بالبلاد عصفا شنيعا، والتى أبلىَ هو فيها، حتى تقلّص ظلها، بلاء عظيما .



وسبحان من يقرُن قضاءَه باللطف ، فإنه فى الوقت الذى بُثَّ فيه هـذا الترام فى شوارع البلد وأزقّته يدكّ الرءوس، ويحصِد النفوس؛ وأُطلقتْ آلاف الأوتوموبيلات، واللوريات، والموتوسيكلات ، تَقُـدُّ المتون ، وتبعَج البطون، وتأبى «الشفقةُ» على ساقتها أن يرسلوها على خلق الله قبل أن يحْشوا معاطسهم بالكوكايين، والهاروييين، وغيرهما من البلاء المبين، حتى «يغيبوا» عن مشاهدة ماتَنسِف سياراتهم من الهام، وماتَفْرِى من الأجسام، وما تُرسِل على الناس من الموت الزؤام! ولا تنس ، جعل الله لك فى كل خطوة ألف سلامة، تلك السـيارات العاصفة، مالها من دون الله كاشفة، وتيك التى يتخذها أبناء الذوات ومن انحدرَت اليهم النعمة. وهى تنطلق انطلاق السهام، فى أجسـاد الأنام، كأن مهمتها فى هـذا البلد صنعُ أرامل وتخريجُ أيتام — سبحان الذى حين يَبتلى البلدَ بكل هـذا يُرسِل فيه الدكتور على إبراهيم ، يجمع

من أعضاء الناس ما تفرق؛ ويَرُمّ من أحشائهم ماتخرق، ويَضُمّ من أشلائهم ما تمزق، حتى أوشك أن يقطَع على عزريل، رزقَه من فنه الوبيل !.

ولقـد رأيت صديقا لى من أهـل الأخطار لا يرى الدكتور على ابراهيم يجُوز فى طريق أو يغْشَى ناديا الا صفّ قدميـه ووقف (زنهار) ورفع يده بالسـلام العسكرىّ، فقلت له فى هذا، فقال : «علشان ياخد بالُه منى يوم أُحمَل اليه» فقلت له : يالك من رجل مبالغ، فكان جوابه : على كيفك لك ترمواى يتردّد عليه !



وجَلّ من تعـالى على النقص وتنزَّه عن العيب ، فإن جرَّاح الشرق كله لا يملِك مستشـفى يليق بجلالة محـله ولا بآلاف « المجاريح » الذين يطابُون مستشفاه من كل مكان : فقد سُلِّطت عليه شهوة اقتناء «السجاجيد» وألوان الطُّرَف وإحراز ما أبدعت يد كل فنّان، وما افتنّ فيه كل صَنَع حُسَان، ومِن كل ما رثَّت فيـه العصور ونَصَل عليـه لون الزمانـ ، من دُمًى وتماثيل، وتصاوير وتهاويل، ونمارق ووسائد، ومعاضد وقلائد، وخُشُب منجورة ، وأحجـار محفورة ، ومزاليج أبواب ، وسروج دواب ، وشُرُفات دور ، و«شواهد» قبور، وضِبَاب مصـبَّرة، وجِرَار مكسَّرة الخ : ولو نَقَص عنـه بعضَ ما يُحرزه من ذاك لابتَنَى مستشفى يليق حقا بشيخ الجراحين! على أننا نترك الكلمة فى هذا للمجلس الحسبي !!!

وبعدُ فان حقًّا على أهل مصر جميعا، ومياسيرِهم بنوع خاص، أن يسجدوا لله تعالى سجدة الشكر كلما أطلّت شمس الصباح عليهم اغتباطا بأن على ابراهيم غير ولُوع بجمع المال، فلو كانت لغيره تلك الأصابع التى «تسرق الكحل من العين» لآثر أن يكون «نشالا» . اذًا والله لسلّ الآلاف، ولأحرز أكثر مما تُجدى «الجراحة» أضعاف الأضعاف، ولما أبْقَى فى جيب على كيس؛ ولا هنيءَ الناس بكريم ولا نفيس؛ ولكن قدّر فكان، وسبحان من «يعطى الحلقة للى بلا ودان» ! ! ! .



"مَن أَرادَ الدُّنيا فعلَيه بالعِلم ، ومَن أَرادَ الآخِرَةَ فعلَيه بالعِلم ،
ومَن أرادهُما معًا فعلَيه بِالعِلم"

أحمد لطفى السيد بك

لا أدرى، أعلمه أوفر من عقله، أم عقلُه أوفر من علمه؟ إلا أنه أَوْفَى بهما كليهما على الغاية . وهو عالم واسع العلم، وعاقل واثق العقل، وذكىٌّ متسعِّر الذكاء . له عينان حديدتان كأنما تمدهما أشعة (إكس) فلا يكاد يقوم بينهما وبين ما تريدان حجاب؛ وإنه ليحاول أن يستُر عنك إدراك هذا منه بمنظاره الأسود، كما حاولت الطبيعة أن تكتُمه على الناس بما ضيقت فى مَحْجِرَيهما تضييقا !

وأحمد لطفى السيد قد بان خطرُه من يوم نجَم، فكان طالبا فى مدرسة الحقوق لا تَعنيه مُدارسة القانون المدنى، ولا يحتفل لقانون تحقيق الجنايات، ولا يهمه أين تقع (نمرته) من سلك التلاميذ فى امتحان غاية العام قَدْرَ ما تَعنيه مُدارسة المنطق والفلسفة وعلوم الاجتماع؛ على أنه كان مُجَلِّيًا فى الأولى كما كان مجلِّيا فى الثانية . وبهذا خرج لطفى على غير ما يخرج سائر التلاميذ، خرج وله عِرْق فى الحكمة والمنطق وسائر علوم النظر لا يتَّسق فى العادة لإخوانه «الحقوقيين» .

دَرج مَدْرَج نُظَرائه فى الحياة العملية حتى كان نائبا أو رئيسَ نيابة؛ على أن خَطْبه فى ذاك لم يكن جليلا، فقد انصرف همه، إلا أقله، إلى تحصيل العلم والأدب وأخذ العقل بالتدبير وصدق النظر، وأخذِ اللسان والقلم بفصاحة

القول وقوة البيان بالحديث والخطابة، وبالترجمة والتأليف، وتارةً بالكتابة فى الصحف فى ألوان الموضوعات .

ثم كان حزبُ الأمة وكانت «الجريدة» وتهاوت الأنظار على من يقوم بها كفاءً لمهمّها الجُسام ، فوقعت كلها عند لطفى السيد ، وتولّى الجريدةَ فكان كاتبا لا يُبارَى كما كان صحفيا لا يضارَع . وبانت له موهبة جديدة أحوج ما يكون اليها امرؤ يتولّى تلك «الجريدة» فى ذلك العصر، وهى شِدّة الطبع والصبر على الخصومة وطول الكفاح . وناهيك بمن يَصْمد للقتال إذ شيخُ الكُتّاب على يوسف يتولاه عن يمينه، وإذ فتى الوطنية مصطفى كامل ينقضّ عليه أحيانا من شِماله، وإذ أَمامَه، ولا أسمِّى، من لا يُشَقّ فى الكيد غُباره، ولا تُصْطَلَى فى الجُلَّى ناره . ومهما زعموا أن وراءَ حزب الأمة كانت قوّةٌ تعضده وتشدّ مَتْنه ، فما كان من شأن هذه القوة أن تُقرِّب الى هوى الناس جريدةً ، وكانت فى الوقت نفسه تتحدّث على أمانى البلاد وتطلب أن يسودَها حكم الدستور، وإن طلبتْه دستورا «متواضعا» كما كان يهتِف أستاذنا الجليل — ومع هذا فقد تهيأ لمقدِرة لطفى أن تستدرِج الخاصة وأشباه الخاصة فى عامة البلاد، وأضحت دارُ «الجريدة» منتدى أهل العلم والأدب والرأى الصحيح ينتجعونها من كل مكان .

لم يكن لطفى فى سِنيه تيك صحفيا فحسب، بل كان أستاذا يشرع فى العلم والفلسفة وفنون الاجتماع، وكان له طلاب من الشباب أهل المواهب والذكاء، فماراقك اليوم من علم فلان، وما أعجبك من عقل فلان، ومماراعك

من أدب فلان ؛ فأولئك ، فى الحق ، أكثرهم من صنعة لطفى السيد فى تلك الأيام .

وهو رجل له ، أو كانت له ، شخصية قوية : له نظره ، وله تدليله ، وله أسلوبه الكتابى ، بل وله إيماءته وحديثه . وإن كثيرا ممن كانوا يطوفون به ليقلدونه فى كل ذلك ، فمن أعيا عليه تفهم علمه وأدبه راح يقلده فى شكله ودله ، ويحاكيه فى لهجته ومخرج حروفه .

ومن ظريف ما يروى فى هذا الباب أن فتى من أبناء الحكام أصحاب لطفى كان يعجب به هو الآخر طوعا لإعجاب الناس ، فكان جهد حيلته فى بلوغ بعض شأو لطفى أن ينسل الى حلاقه فيسأله أن يسوى له رأسه كما يفعل بشعر الأستاذ سواء بسواء ، ثم يغدو على الناس بعد ذلك يقبض صوته ويرسله ، ويلويه ويعدله ، ويفككه ويلاحمه ، ويرققه ويفخمه ، ويثنى عطفيه من زهو واستكبار ، ويهز كتفيه من استنكاف واستنكار ، ثم يعود الى نفسه فيراها قد استوت «لطفى السيد» فى غير جهد ولا عناء ! ... ...
وما دام العلم والفلسفة كلها إنما تتصل «بالحلاقة» فلماذا يقف صاحبنا عند هذا الحد ؟ وإنى لأراه يغذ السير[1] فأسأله الى أين يا فلان فيقول الى الحلاق فقد اعتزمت اليوم أن أحلق «مونتسكييه» أو «أوجست كونت» أو «جان چاك روسو» أو غير أولئك من ضخام الرجال . ومثل هذا عندنا ، لو لاحظت الناس ، كثير ! .

(١) يغذ السير : يسرع .

ونعود الى الأستاذ لطفى فقد ظل فى كفاحه وجِلاده، إذ خاصةُ الناس كلَّ يوم عليه فى إقبال، حتى ضعضعت أفاعيلُ السياسة حزبَه فكان آخرَ من ألقى السلاح . ثم عاد الى النيابة فلم يتصل شأنه فيها بجلالة شأنه حتى كانت سنة ١٩١٩ فضحّى بالمنصب فى سبيل الثورة، وانتظم فى الوفد المصرى عضوا فكان فيه عنصرا قويا ، وكان أداتَه فى أكثر ما يُخرج للناس من بيان مكتوب . وانطلق مع الوفد الى أوربا ولبث معه عاملا نافذا، ما شاء الله أن يلبث ، ثم عاد مع من عادوا أوّلَ الأمر . وتظهر بوادر الشقاق فيبدو له أن يتحفّظ فيتحفّظ، ثم يستفحل الخطب فيهديه عقله الى أن يتسلّل الى داره فى رفق فيفعل، فيبقى حِلْس بيته[(1)] سَلْما كله حتى يُطْلَبَ لما هو أليق به وأكرم، فيتولى دار الكتب المصرية ينظر فى شأنها بعضَ اليوم، وينظر فى شأن العلم سائرَه، وكان من حظ «نصف العزلة» هذه، أو من حظ العلم منها، أن أتم ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس (الى نيقوماخوس)؛ وما كان الإبداعُ فى ترجمة هذا الكتاب بأبلغ من الإبداع فى الإقدام على إخراجه فى مثل تلك الأيام !!!

ولقد فاتنى أن أقول لك إن هذا الرجل الذى ضحى بالمنصب فى سبيل الثورة، قد عاد فضحى بالثورة فى سبيل المنصب، فأصبح كما يقول أصحاب الميسر (كِيتْ) لا له ولا عليه. والى هنا ينتهى عندى تاريخ ذلك الرجل العظيم!

وعساك تتحدانى بأنه أصبح الأستاذَ الأعظمَ الرسمى فى كل البلاد من يوم أصبح «مديرَ الجامعة» فأجيبك بأنى « ما عنديش خبر» بشىء من هذا كلِّه؛

(١) يمكث فيه لا يبرحه .

وكيف تريدنى على أن أصدّق أن الأستاذ لطفى السيد كلّه أصبح مديرَ الجامعة المصرية فى حين لم أسمع بأنه أفاض على الطلاب درسا أو ألقى محاضرة فى العلم واحدة؟ فان كنت تريد «بمدير الجامعة» ذلك الموظف الذى ينكسر همه على طلب كُسَى الحجاب والسعاة، و «تسوية» أجور البوابين والجنايني و «العرض» لوزارة المعارف عمن يلزم ترقيتُهم من جماعة الكتّاب، فليس ذلك بالرجل الذى يَعنينا فى مثل هذا المقال ! .

الحق أن لطفى أستاذى، وإنه ليسوءنى أن يختم حياته فى هذه «الجامعة» من حيث يجب أن تبتدئ الحياة القوية لعظماء الرجال ! .

والواقع أن الداء «الأجنبى» قد تفشّى تلك الجامعةَ فى حين لم نر لذلك «الحكيم» قولا ولا عملا! ولو كان هذا المقام مقام تفصيل فى مثل هذا الباب لباديتُ أستاذى العظيم بكثير ! .



ولطفى بك يجمع الى عذوبةِ الروح عذوبةَ الحديث، وهو أديبٌ تام يحفظ صَدرا عظيما من متخَيَّر شعر العرب ومأثور أقوالهم، الى فقه فى متن اللغة ورعاية لدقائقهـا، وبخاصة اذا كتَب أو حاضر أو خطب . وله فى أبواب البيـان والترسّل أسلوبٌ خاص به حاول كثير من الكتّاب أن يتكلّفوه فانقطعوا دونه . وهو شديد الحرص على أن يُرِيَك أنه لا يعبأ بتجويد العبارة ولا يتحرّى اللفظ الرشيق إذ هو فى الواقع يَجهَد فى هذا ، رغم عنايته بالمعانى والتكثّر من إيراد مصطلَح العلماء، ويتعمّل له الى ما دون التعسف .

وهذه الصفة فى لطفى السيد إنما تتصل بأخلاقه جملة ، فهو رجل قد أخذ نفسَــه من كل أقطارها بألوان التكاف : يتكاف فى مَرَاح الشـباب ثقل الشيوخ ، ويتكاف فى مجلس اللهو هيئة الجِـد ، ويتكلف عدم الاكتراث لأعظم ما يكرُثه من الأمر ، بل إنه ليتكلف الكلام «بالجاف» إذ هو قد نجم فى بيئة لم يعد يرتبطها بأهل الريف سبب !

نعم لقد أخذ نفسه بهذا التكلف كلِّه حتى أصبح له طبعا وسجية . وأكبرُ ظنى أنه لو شاء يوما أن يُرسل نفسه على سجيّتها لتكلف فى هذا كثيرا .

ولطفى بك أوّل من رفع راية «الديموقراطية» فى مصر فى هذا العهد الحديث ، وهو الذى نفخها فى روح الشباب وأجرى كلمتَها على ألسنتهم ، وعُصارة الحزب الديموقراطى من تلاميذ لطفى ولاجدال ، وإنك لتراه مع هذا أرستقراطى الفكر ، شديد الأَثَرة للرأى ! ولقد تخالفه الى غير وجهه فيأبى إلا أن يغلبك ، ولقد يغلبك بمحض الجدل يتحرّف فيه تحرُّفا ، وهو رجل يملِك حجته و يعرف كيف يصول بهـا عليك فى الحِوار ، فاذا كنت أنت الآخر جَدِلا متمكنا من حجتك وأحسّ منك السطوةَ برأيه رأيت فى وجهه تغيرا وآنست من نفسه عنك انقباضا .

ولا أدرى أكان هذا من أثر تمكُّنه من نفسه وشدّة إيمانه بحقه وكراهته أن تنزِل من الرأى على باطل ؟ أم أن للمسألة وجها آخر ؟ !

*
* *

واذا كنت لم أقع من لطفى على أجلّ فضائله ، فلعلى قد تهدَّيت الى أجلّ مكارهه ان كان ما هتفتُ به يُعَدّ فى المكاره ، وإنى لأرجو بهـذا أن أُصيب

رضاه كاملا . ولقد دخل رجل من الناس على بعض الحكماء فأقبل عليه يمدحه ويعدّد محامده، فقال له الحكيم : ياهذا أولى لك؟ وان إكبارك لما ترى فىّ من فضل لدليلٌ على أنك لاترانى كفئا له، فلو قد دللتنى على هَنَاتى! فتلك التى ليست بكفء لى .

أسأل الله تعالى أن يعيننا على خدمة أساتيذنا وأحبابنا فنحن فى حقوقهم من هذه الناحية جِدّ مقصّرين !!!



لا أُبالى إزاء نَفع الأقارب والأصهار ، أجَفَّ النيلُ أم ذَوَت الثِّمار !

اسماعيل سرى باشا

طويل القامة ، كبير الهامة ، عريض « الوجهة » ناتئ الجبهة ، ضخم الأنف ، مرسَل اللحية والحاجبين ، له عينان متحيرتان ، دائمتا الحركة والدوران ؛ نفضت الطبيعة على هيكله كل جلال الشيوخ ويأبى هو إلا أن ينفض على لسانه كل خفة الشباب . فاذا أنت رأيته كدت تعلّق نفَسك من روعة وإكبار : جلالة علم فى جلالة منصب فى جلالة مشيب . حتى اذا سمعته يخُوض فى بعض من لا يحبهم ويستريح اليهم لم تكدْ تملك نفْسك من الاستنكار أو ما هو أشدُّ من الاستنكار !

وسرّى باشا مهندس بارع ، كفء ، فى بابه ، لكل عظيمة ، وهو شيخ المهندسين المصريين وإمامُهم غيرَ مدافَع . وإن له فوق هذا لشهرةً عالمَية ، فقد دفعه خَطَره وسَعَةُ علمه وصحةُ تقديره وقوّة ماضيه الى أن يُسْلَكَ بحق فى زمرة كبار المهندسين فى العالم .

وسرّى باشا وُلِد فى عائلة رقيقة الحال فى قرية (ريدة) من أعمال مركز المنيا ، ونزح والده الى قَصَبة ذلك الإقليم لا يتكئ إلا على بدنه فيما يكون أردّ على شَمْله ، فاستُخْدِم فى ديوان المديرية فى عمل لا يَتّسق لذكائه ولا لقوّة استعداده ، فتطلّعت نفسه الى ما هو أولى به وأجدى ؛ ولم يُلْهِهِ عمله المُضْنِى عن أن يتعلم القراءة والكتابة ، وما زال دائبا حتى أحسنهما وحتى عُيِّن كاتبا فى مديرية الفيوم ؛ ولأمرٍ مّا نُفِىَ عمدة المنيا الى السودان فعين بدله

محفوظ افندى ، وأدخل ولده «اسماعيل» فى مدرسة المنيا مع حسن فتحى الذى صار بعدُ مفتشا للرى ؛ وظهرت مَخَايِلُ النجابة على ولده هذا اسماعيل ، وبَرَعَ أقرانَه ؛ وما برح له السبق عليهم حتى اصْطُفِي فيمن اصطفتهم الحكومة «للارسالية» ؛ فمضى الى فرنسا واتصل بكلية «سنترال» حيث درس الهندسة وخرج منها بأعلى شهاداتها .

وعاد اسماعيل سرى ، فاتصل بخدمة الحكومة مهندسا صغيرا ؛ وتدرَّج بِكفايته فى مناصب وزارة الأشغال حتى أصبح مفتشا «لعموم المشروعات» ؛ ومن ذلك اليوم رَنَّت الآفاق باسم اسماعيل بك سرى فى المهندسين العِظام .

وفى الحق أن ما مُتِّع به كَبِدُ الصعيد (مديرية المنيا وطرفا أسيوط وبنى سويف) من رىٍّ صيفى فإقبال زرع فسعة ثروة ، انما كان من صنعة اسماعيل سرى ، مهما عَدُّوا على تلك «المشروعات» من العيوب .

وفى الحق أيضا أنه — بعد أن طُوِيتْ من صحيفة وزارة الأشغال أسماء المهندسين المصريين حين أَوْدَى الرَّدَى بعلى باشا مبارك واسماعيل باشا محمد وبهجت باشا وأشباههم من النَّوَاظِير الأوالى — كان اسماعيل سرى أوّلَ من بَعَثَ على الألسن أسماءَ المصريين مع ديبوى ووليم جارستن وأكفائهما من المهندسين الانجليز .

* * *

ولو قد تُرِكَ اسماعيل باشا سرى فى عمله الفنّى البحت لأجْدَى بعلمه على البلاد كثيرا ؛ ولكن الرزيّة كلها فى المناصب ، وقاتل الله المناصب ، فقد قُلِّدَ الوزارةَ ، والوزارة سياسةٌ أكثر مما هى فنّ ، والرجل لايَحْذِق السياسةَ ولايفهم

منها إلا القدرَ الذى يعصِم عليه منصِبَه ويستديم له أبّهة الوزارة وما اليها من الراتب، والجَدْوَى على الأولاد والأقارب .

ويبالغ صاحبنا فى الإخلاص لهذا المعنى ويُفْرِط فى الحرص عليه الى حدّ أن يُسَخِّر، اذا دعت الضرورةُ، كلَّ ما أُوتى من علم وفن لخدمة السياسة ولو أودى فى هذا السبيل، بكل وادى النيل؛ حتى ظفِر فى عهد اللورد كتشنر، إن عدَّ هذا من الظَّفَر، بتلغراف تأييد من حكومة انجلترا يضمن له السلامة «والنغنغة» فى المنِصب والجاه على طول الزمان !

وانى لأعرف طائفة من المصريين كانوا، ولعهم مازالوا ، يراءُون أهلَ السلطة من الانجليز ويتجمَّلون لهم ويظاهرونهم بالمودّة والعطف استخراجاً للنافع، اذ قلوبهم لا تنطوى من ذاك على كثير . أما اسماعيل سرى باشا فهو لا يمارى القومَ فى هـذا ولا يرائيهم؛ فانه مخلصُ الحب لهم صادقُ الصَّبابة فيهم، يواليهم بالهوى فى سره، كما يتشيّع لهم فى جهره، لا يتحرَّج فى ذلك ولا يتأثّم؛ والإخلاص، لو علمت، فنون! ...

* * *

ومن أظهر صفات هذا الرجل أنه وَصُولٌ لِرَحِمِه، دائبٌ جاهدٌ، فى غير مَلَلٍ ولا سأَم، على كل مايعود بالخير على ولده وأصهاره وسائر عشيرته؛ ولو مُدَّ له فى الحكم وبُسِطَ له فى السلطان «لَرَفَت» جميع موظفى الحكومة، وجَمَع الى كل فتى من أهـله ٤٥٧ وظيفة فى آن واحد، حتى يستطيع أن يقصر وظائف الدولة عليهم فلا يتولّى واحدةً منها خارجٌ عنهـم . وإن له فى دَسِّهم

فى الوظائف والقفز بهم الى عُلْيَا المناصب لأحاديثَ تُجْمَعُ وتُنْشَر، وأفاكيهَ تُرْوَى وتُؤْثَر؛ وحسبك أن تردّد النظر فى دواوين الحكومة وسائر مصالحها لتقعَ فى كل واد على أثر من ثعلبة . ولقد بدا يوما لبعض الحَسَدَة أن يجمع ما يَجبيه «آل سرى» من أموال الدولة، فخرج له منها ما يقوم بنفقات مصلحة كاملة (وعين الحسود، فيها عود) حصنتُ آلَ سرى برب الفَلَق، من شرّ ما خَلَق، ومن شر غاسِقٍ اذا وَقَب ، ومن شرّ النّفاثات فى العُقَد ، ومن شرّ حاسدٍ اذا حَسَد .

ومن طريف ما يرَوَى له ، وكُلُّ ما يروى له فى هذا الباب طريف، أن وزيرا كان من زملائه له قريب فى وزارة الأشغال فسأله أن يرقّيه الى بعض مناصبها الخالية لأنه «قد استحق الترقية» ، فتثاقل عنه سرى باشا وتعذّر عليه، وتوسّط فى الأمر بعض اخوانهما من الوزراء فقال لهم معالى «وزير الأشغال» ولماذا أرقِّى له قريبه وعنده قريبى "فلان" لا يرقيه! فقيل له ولكنه لم يَحِنْ بعدُ أوانُ ترقيته ؛ قال : اذن نتربَّص بقريبه حتى يجىء الدور على قريبى . وتعلَم، أيدك الله، أن صاحب الحاجة أرعن، فبادر الوزير الآخَرُ بترقية قريب سرى باشا بالاستثناء فى سبيل ترقية قريبه هو بحُكْمِ الدور ! ! !

وجاءه مرةً أحدُ زملائه الوزراء من هذا الباب فسأله أن يرقّى أحد صنائعه درجةً على أن يرقّى هو أحدَ أقرباء الباشا فى ديوانه درجة ، فدار بذهنه «الرياضى» الكبير فى «الحسبة» فرآها « تفرق » ٢٤٠ قرشا فى كل شهر فتوقّف أو يُوَفَّاها «على داير القرش» ، وتَعَاصَى الأمرُ، وتعذّر الحل،

وأخيرا وبعد طول محادثات ومفاوضات توسّط أحد الوزراء أيضا فى الأمر على أن يزيد قريبا لسرى باشا فى وزارته هو مائتى قرش ، على أن هـذا كل ما تبلغه طاقته ويدخل فى جهده، وذلك كله تفاديا من وقوع أزمة وزارية (Crise Miministérielle) ، وبعد لأيٍ رضى سرى باشا بهذا الحل محتسبا عند الله ٤٠ قرشا فى كل شهر : كانت — لو أن فى البلاد عدلا وانصافا — تعودُ على بعض الولد أو الأصهار أو الأقرباء، بشىء، ولو قليل، من اليسر والسعة والرخاء ! ! ! وكانت تضـحيةً من نفس سرى باشا هائلة استحق بها أن يقام له تمثـال، يخلّد به « المثـلُ الأعلى » للتضحية والإيثـار على تطاول الأيام والليـال ! ! !



مَن أطاقَ التِمَاسَ شيءٍ غِلَابا * واغتِصَاباً لم يلتَمِسْهُ سُـــؤالا

عبد الحميد سعيد بك

عبقرىٌّ حقا كما تعني اللغة بهذا اللفظ، فهو طويل بائن الطُّول، عريض وافر العرض، وَافِي العنُق، بعيد ما بين المَنكِبين، شديد المُنَّة، مفتُول العَضَل، اذا تمثّل اليك حسبته بقيّـة من هيا كل سليمان ! ضخم الرأس والوجه، تدور من حوله لحية كأنها إحدى الآجام، بَسَقَتْ حول بعض الآكام! لم يَقُمْ عليها مِنجَل البستانىّ بالتقليم والتّشْذيب، ولم يتعهّدها مَقُصّه بالتسوية والتهذيب، ولو قد رفعتَ النظر الى أعلى وجهه ثم تراخيتَ به الى أسفل ذقنه، لرأيتَ ثَمّ مُثَلّثاً متساوى الساقَين ! أما روحه الذى بين جنبيه، وأما عزمه الصائل فى نفسه، فأشبه بسكّان هيا كل سليمان، منهما بغرائز بنى الانسان؛ فهو ماردِ النفس والقوّة، مارد العزم والفُتُوّة !

نشأ منشأ بنى الأعيان يُدَلّيهم أهلُوهم الى المـدارس ليُحْرِزوا الشهادات ثم يخرجوا الى خدمة الحكومة؛ وتلك الغاية عند جَمْهَرة أعياننا تُشَدّ اليها الرحال، وتتناهى عندها مُرْسَلات الآمال؛ على أن التلميذ عبد الحميد سـعيد لم تكد تتفتّح نفسه لِفهم ما فى الدنيا حتى كان له فى أسباب الحياة غير ذلك الرأى، لم يرَ الزادَ كلَّه فى أن يرسم خريطة إيطاليا، وأن يجيـد الجَزْرَ التكعيبىّ، وأن يستظهر من « الكتاب الرابع » بابىْ الاشـتغال والتنازع ليخرج، فى النهاية، «فى العشرة الأول» ، بل أدرك من شباب سنّه أن له وطنا، وأن هذا الوطن يتحكّم فى شأنه غيرُ أهـله، وأن واجبه، مادامت بلادُه محتلةً مضيَّعة الحق،

أن يكون جنديا لمصر قبل أن يكون طالب علم فى مصر . وعلى ذلك اتصل هذا الفتى بدُعاة الوطنية ، وصرف أعظم قسط من الوقت المقسوم لمراجعة الدرس الى حديث الوطن . واذا كان عبد الحميد سعيد قد أحرز الشهادة الثانوية وأحرز بعدها إجازة الحقوق (ليسانس) فقد اختلس الدرسَ والمذاكرةَ لها من وقت «الوطنية» اختلاسا !

ويهاجر صاحبنا الى باريس يدعو لمصرَ، ويرفع للعالَم حجّتها، ويجاهد فى سبيلها بما يملك من المال واللّسان والقلم، ويتخذ هنالك بيتا يُصبح مَثَابةً لدُعاة مصر خاصةً ودُعاةِ أمم الشرق المظلومة عامّةً، يجتمعون فيه الفَيْنَةَ بعد الفينةِ ليأتمروا فى شأنهم ويستفصحُوا للدعوة مناهجَهم .

وتَنَهَّدُ[1] دولُ البلقان كافّة لحرب الدولة العليّة ، وتُجَرّد عليها كل مُهْلِكة من آلات القتال، كما تحرّك عليها كل ماتغلى به صدورُ القوم من التعصب الدينى، فيركب عبد الحميد الى البلقان جَناح النَّعَامة، واذا هو جُنْدىٌّ فى لباس العسكر وسلاحهم، واذا هو يأبى إلا أن يقاتل دائما فى الصف الأوّل، حتى يقع ذات ليلة فى إحدى الوقائع جريحا يترسّب[2] فى دمه إذ قد انحَسَر عنه قومه وأقبلت خيل البلغار، فما زال يتخلّج من دونها ويتحرّف عنها يتستّر بالظلام ويتوارى فى جذوع الدَّوْح لا يبالى ما يَنْزِف من دمه المُهَراق حتى يبلغ على هذه الحال خطوطَ الترك، ولولا هذا العون من الله ماوقعت عينٌ على وكيل مجلس نواب

٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ ! !

(١) تهد لعدوه واليه (من بابى منع ونصر) برز اليه وصعد له .

(٢) يتضرّج فى دمه كأنه يرسب فيه لكثرته .

وتدور بعد أولئك الأيام رحى الحرب العظمى فينخرط عبدُ الحميد في جندها يتحوّل من ميدان الى ميدان، كلما أهابت به دواعي الجلاد والطّعان، حتى اذا تهادنت الأمم المحتربة، وظهر الحلف الانجليزي، وتكسّرتْ دولُ الحلف الألماني، وانطلقت يد انجلترا في مُلك الله تفعل ما تشاء، هام صاحبنا في فضاء الأرض يتبلّغ بالكِسرة، ويتروّى بالصُّبَابة، وهو سليل بيت نشأ في التّرَف وتقلّب في النعمة، لا يَعنيه من أمره إلا أن يدعو حيث كان لمصر، ويهتف، أنّى وقع به القضاءُ، باستقلال مصر.

وما أنس لا أنس منظره يوم ٢١ نوفمبر وقد جرّدت دولة زيور باشا كلَّ ماعندها من جيوش وخيول مَهْرِيّة، ورماح سَمْهرِيّة، وقَنًى خَطّيّة، وكل عازفةٍ مُهَمْهِمة، وكل قاصفة مُدَمْدِمة، لِتحولَ بين نوّاب الأمة وبين اجتماعهم؛ ويخرج عبد الحميد سعيد متسلحا بعصاه التي تزن ٧٣ كيلو، وقد تهيأ للحرب والطّعان، في سبيل اقتحام الصفوف الى البرلمان؛ فكان منظَره يومئذ "كالتانك" سواء بسواء!

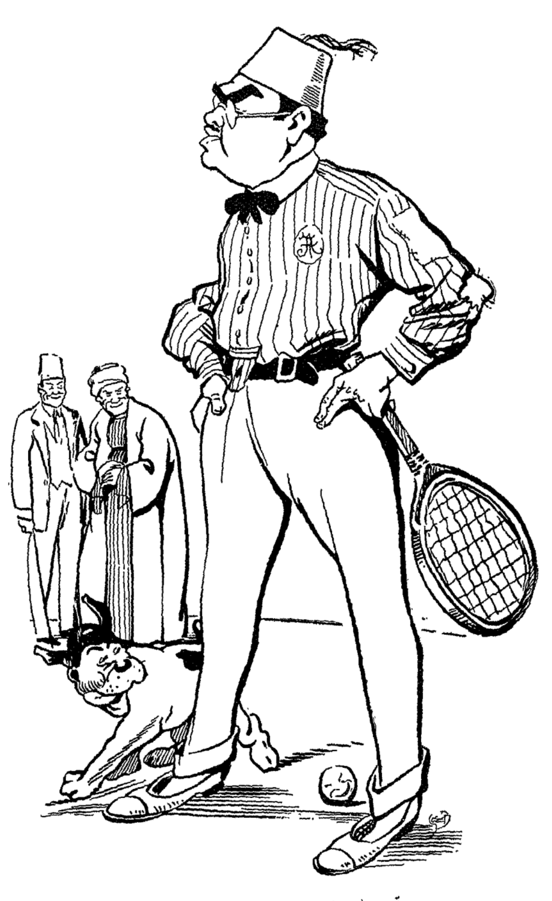
وهو اليوم عضو في مجلس النوّاب، اذا تحيّفت السِّنُّ من بعض فتوّته، وطَامَنَ حكم الأيام شيئا من جِمَاحه، فترك حديثَ مُصَوّع وهرر، فما زالت له قوّة على الوثب الى بلاد الأحباش، للبحث عن نهر الجاش(١)، دعك من أمر سِنّار، ومن خزّان مكوار!

(١) كان عبد الحميد سعيد بك قدم استجوابا في مجلس النوّاب لوزير الخارجية يتعلق باتفاق بعض الدول على نهر (الجاش).



وبعد، فقاتل الله العلم، وقاتل الله الاختراع الحديث؛ فلولا ما أخرجا للناس من بنادق ومدافع، وآلات ساحقة، وغازات خانقة، وطيارات تحلّق فى السماء، تمطر الجيوش ألوانَ البلاء، ومدرّعات وطرّادات، ونسّافات وغوّاصات، ترمى بكل فاتكٍ وَبِيل، من قذيفة وطربيل، لكان لعبد الحميد سـعيد اليومَ شأنٌ لايقـل عن شأن الزناتى خليفة، وأبى زيد الهلالى سلامة، والبردويل ابن راشد، وآصف شرّاب الدماء، وأكفائهم من أبطال الحرب والطعان، الذين سارت بشهرتهم الركبان، وسجل «التاريخ» بطولتهم على وجه الزمان!...

ولكن من سوء حظ عبد الحميد بك سعيد أنه يعيش فى القرن العشرين؛ ولا أدرى أكان بهذا قد ظلم التاريخَ، أم قد ظلمه التاريخُ؟ ! ! ...



قبـــل ما يلعب ! ....

فكرى اباظة !

متكوِّر الوجه، أَخْيَف العينين فى ضيق محاجِر، مقرون الحاجبين، كأنما شُقّ عن فمه بعد أن استوى خَلْقه؛ متوافِر اللحم فى غير بُدُونة بيِّنة، ولو قد أَطلَق، مع قِصَره، للشحم العِنان لتّمت علـيه نعمة الله كلُّها! ولو رأيتـه فى إخوته لحسبته بعض تلك النباتات التى تخرج وحدها فلم يتعهّدها مِنْجَل البستانى بالتسوية والتشذيب !

وفكرى، على هذا! على هذا كله ! ! . يكاد من خفة الروح يطير؛ ولعل مما يساعده على هذا (الطيران) شكله (البالونى) الخفيف ! حلو النفس، حلو الحديث، حاضر البديهة، رائع (النكتة)، لو هُيِّئ لك أن تجلس اليه عشرين سنة ما أحسست ضَجَرا ولا سأما ؛ يَسرّك حتى فى غضبه وحتى فى خِصامه ! وإن هذه الطُّرَف البديعة التى يطالع الجمهورَ بها فى الصحف لِقطَعٌ من نفسه الفَنّانة اللعوب يُرسلها على القرطاس إرسالا فى غير كلفة ولا مطاولة ولا عناء؛ ولعلها بهذا وحده تُشيع فى الأنفس كلّ ماتجد لها من أريحّية ولذّة وطرب .

وهو ذكى متعلم تامّ الاستعداد؛ على أنه صرف كثيرا من هذا الى تمرين تلك الموهبة العظيمة فيه حتى أدركتْ كلّ هـذا الإدراك، وحتى استأثر بهذا الفن البديع من البيان إن لم يكن قد خَلَقه فى بلاد العربية خلقا !

وأخشى ألا يُعجب هـذا الكلامُ الأساتذةَ : علام سلامة، ومصطفى صادق الرافعى، ومهدى خليل، وصادق عنبر، وأضرابهم من أصحاب اللغة .

ولا أقول لهم إن لغتكم لا تتّسع لهذا الضرب من (النكتة) وأسباب التظرّف، ولكنّى أقول لهم : اذا أبيتم ألّا يتنـدّر الناس إلا بالفصيح الصحيح فعليكم أولا بتحفيظ الأمة كلّها المعلّقات السبع، والملحمات السبع، والمذهبات السبع، والمنتقيات السبع الخ، الى استظهار الكامل للبرّد، والأمالى للقالى، وصِحاح الجوهرى ، ومخصّص ابن سـيده ، والأساس للزمخشرى الخ الخ ! . . .

وأنا زعيم لكم بأن الناس لن يعودوا يسمعون فى أعراس (أولاد البلد) فى خِلَل الغِناء فى (قافية أسمـاء الشوارع) مثلا : اللى على جِتّتك ! . . . إشمعنى؟ الضرب لحمر ! . . . بل سيسمعون بدلهـا إن شاء الله : هـذا البادى على جُثْمانك ! . . . ما بالُه؟ . . . من أَثَر المَشْق بالسِّياط ! . . .

وعلى ذلك فقد حق على هؤلاء وأمثالهم أن يُطلِقوا للناس حرّية القول والكتابة فى طُرَفهم وسائر حاجاتهم حتى يتهيّأ للأمة أن تستحيل كلها (شناقِطة) و(حماميز فتوح الله)، باذن الله ! ! ! !

نعم لقد (تخصّص) الأستاذ فكرى أباظه فى هذا النوع من البديع وبَرَع فيه أيَّما براعة،وهذا اسمه يرنّ به باعة الصحف صَباح كل يوم وظُهْرَه ومَساءَه؛ ولو اجتمع لامرئ فى بلاد الغـرب هـذا (الفن) الى هـذه الشهرة لخرج فى أصحاب الملايين؛ ولكننا مازلنا فى طريق تقدير الفنون؛ على أننا كنا نتهزّأ بها وبأهلها من عهد قريب !

وإذا كان الفن أجدى عليه شيئا فقد أجدى عليه حقا عضويةَ مجلس النوّاب ، وذلك الحظُّ العظيم . وعلى ذكر البرلمان أهمس فى أذن صديق الأستاذ فكرى بكلمة صادق مخلص : اعلم يا عزيزى ، وفّقك الله، أن وسائل النجاح فى شىء لا تصلح دائما وسائلَ للنجاح فى شىء آخر، فإذا كان كل ما أعدّه الأستاذ فكرى للبرلمان هو نفس ما يعدّه للصحف بلا زيادة ولا نقصان فأرجوه ألا يتّكئ كثيرا على عيشه الجديد! وليعلم (أن له ناخبين يتردّد عليهم) . وليس معنى هـذا أن فكرى قصّر فى أداءِ واجبه النيابى، أو أنه لم يكن له فى الأمر كفاية، ولكنا إنما نطمع فى أن يكون للبلد منه فى البرلمان، مثل ما لها منه فى عالم البيان .

على أنه مما يعزّينا فى هذا الباب أنه ما برح يتهجّى (البرلمانية) فى مجلس النوّاب، وذلك بابٌ يحتاج الى ممارسة وطول اختبار وتمرين ؛ أسأل الله أن يمدّ فى عمرى وعمره حتى أراه فى (سنة رابعة) شيوخ، خطيبا (برلمانيا) لَبِقًا، لكن لا كالشيخين المحترمين : عزيز ميرهم ولويس فانوس !

* * *

وقد نسيتُ أن أذكر لك أن فكرى أباظة يشتغل بالمحاماة أيضا، وأنه محام من الطراز الجيد ، وأن له مكتبا فى مدينة الزقازيق يطلبه الناس، وفيهم الجِباه والسَّرَوات[1]، لتولّى مُهِمّهِم والدفاع فى قضاياهم، وأنه مجدّ فى مهنته ، إن صح أن هذه مهنته ؛ لَبِقٌ حسن التصرُّف مبسوط العلم بمداخل القانون . ومن هنا تعلم أن النبوغ فى فن لا يَستهلك دائما سائر مواهب المرء الأخرى .

(١) المراد به وجهاء القوم .

ولا أدرى أيكون من الخير أن يوزّع الأستاذ فكرى قواه على أمرين معا أو على ثلاثة، اذا حسبنا (البرلمان) شغلة ثالثة؟ أم أن الخير كله فى أن يتجرد لتربية تلك الموهبة الجليلة التى لم يشاركه فيها كثير، على حين يشاركه ويبزّعه فى غيرها كثير؟ ! ! !

والأستاذ فكرى تخرّج من عائلة كبيرة جدا كل أفرادها متعلم، وكلهم كسائر المتعلمين له فى السياسة رأى، ولكنى لا أُحصى فى هذه الآلاف (ما شاء الله) حزبا وطنيا إلا فكرى. ولعل هذه من إحدى طُرَفه كذلك !

على أن الأخلق به ألّا يكون حزبا وطنيا من الطراز الجديد (Moderne) بل أن يكون وطنيا قديما محجوبيا لا يقنع بالسودان من منبعه الى مصبّه ومعه الملحقات وملحقات الملحقات، فان فى الشرق القريب والبعيد بلادا ضافية الأطراف، واسعة الأكناف، أولى بمصر أن تتولاها وصاية وانتدابا ما دام الانجليز على رأى الدكتور ثابت ولعل الفرنسيين أيضا (ما يقولوش حاجة) ! ! !

ذلك هو الأخلق بطريف الخيال، وليُسْعد التمنى إن لم تُسْعِدِ الحال .

مُنًى إن تكن حقًّا تكن أعذبَ المُنَى * وإلّا فقد عِشْنا بها زمنًا رَغْدَا



ونِعْمةٍ صَارتْ الى كانزٍ * كَم حُجَّةٍ فيها لِزنديقِ

أحمـــد مظـلوم باشـا

لعمرى لو وقفتَ على عُنق من النـاس لحاجَيْتهم[1] : ما أطولُ الحظوظ فى أطولِ الأعمار فى أطوِ الأجسام؟ لأجابوك فى نَفَس واحد : (مظلوم)! وجه طويل، على عنق طويل، على جسم طويل . ولو رأيته يمشى ولم تكن بعـدُ عرفتَه لخيِّل لك أنه (زفَّة بهلوان) وقف فيهـا رجلٌ على كَتِفَىْ رجل ! وفى الحق أنه لو قدر — لا سمح الله — وأزيل عنقه وما فوقَه عن كتفيه وما دونهما لتمثَّل منهما رجلان! أشبه ما يكون كل منهما بخَلْق مظلوم !

أُسطوانى الرأس، ساهى العينين، لو تأملت فيهما ما أعطتاك إلا أن وراءهما عدًّا كبيرا وزيغا فى أرقام كثيرة! مرسَل الأنف، رحْب الفم، ممدود الذقن، طويل اليدين والساقين. وإنى لأخشى أن ينكشف الزمن، ولو بعدَ حين، عن أن مظلوما هذا رجُلان (اقتصاديان) اتصلا بحيـلة لطيفة حتى خرجا للناس فى صورة رجل واحد توسـُّلا بهذا الى ألّا يدفعا عند السفر إلا ثمن تذكرة واحدة،وفى الفندق (الأوتيل) إلا أجر سرير واحد؛ وفى المطعَم إلا عشاء رجل واحد، وللخيـاط إلا ثمن بذلة واحدة . والواقع أن من شهـدوا مظلوما وهو يتعشى لا يشكُّون فى أن (جماعة) بأسرها تأكل، فان كان،ولابدّ، رجلا واحدا فهو انما يجترُّ ليومه الثانى !

---

(١) أى جماعة منهم .

وحدّثــك بأنه طويل الحظ، فقــد خاض به حظُّه أهــلَ الكفايات وأصحابَ العلم والاختبار فى عصره، فتخطى به رقابَهم الى الوزارة ، ويظل وزيرا أو (ناظرا) للـمالية فى عهد اللورد كرومر قَرَابَة ثلاث عشرة سنة الى أن دالت الأيام لعهد السير غورست وانحرف وجه السياسة فهُدَّت تلك الوزارة هــدّا .

ومظلوم أكفأ الانس والجن لأن يظل (ناظرا) للـمالية ثلاث عشرة سنة لا يلى أمرا ، ولا يُراجَع فى مسألة ، ولا يُبــدِى رأيا ، ولا يقــرأ سطرا ، ولا يكتب كلمة ، ولا ينطِق بحرف ، حتى يقال له خذ متاعك لقد سقطَت الوزارة، فلا يجد مايحمله معه إلا أنفَه وإلا يديه ورجليه، أستغفر الله! وإلا الختمَ ! فنحن اذا أردنا أن نترجِم لمظلوم باشا فى حياته الوزارية فانما نترجم عن الختم، والله يعلم ما تعِب إلا الختم، ولا جَهِد إلا الختم، ولا استحق المعاش الكامل (١٥٠٠ جنيه) فى الواقع إلا هذا الختم ، فطالمـا دار فى غفلة مولاه ونَبرَم، وطالمـا نقش وبصم، وبدل من أحوال الدولة أحوالا، وبدّد أعلاقا وأموالا، وبسط للشركات الأجنبية فى أرضها بسطا، وأخرج عنهـا جلائل أملاكها قِسطا فقسطا . فاذا حملتم للباشا أيها المصريون على هذا حمدا أولوما فاصرفوه كلَّه الى هذا الختم وحده فان الباشا والله لـكاسمه مظلوم !

ويُدسَّى بعد هــذا فى (المعاش) وقد نَيَّف على السبعين ، وينقطع عن النـاس خبره فلا يدرون أيكتبونه فى جريدة الأحيـاء أم يُدرجونه فى سجــلِّ الأموات، ولـكن يأبى له حظه الكبير إلا أن يبعَثه بعد هذا بعثا كبيرا فيتولى

صهره ووارثه محمد سعيد باشا رياسة الوزارة و يستقيل المغفور له الأمير حسين كامل (السلطان حسين) من رياسة الجمعية التشريعية فيجىء لها سعيد بصهره ومورّثه (بعد ٥٠٠ سنة) ان شاء الله مظلوم، فيزيد فى الإرث بمقدار ثلاثة آلاف جنيه فى العام مرتب رياسة الجمعية، من فوقها خمسمائة بدل ولائم؛ وسعيد كان أكيسَ من أن يظن أن مظلوما (يقل عقله) و يصنع فى عمره لأىّ كان وليمة واحدة ! وتدخل الحرب العامة وتقف الجمعية التشريعية ، و يظل مظلوم (يحزّ) على الحكومة ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه كل عام، حتى يأذن الله و يعلن حلها فى آخر سنة ١٩٢٤ من حيث بدأت حياةُ البرلمان ؛ على أن حظ مظلوم لم ينحلّ بانحلال الجمعية التشريعية، فقد انزلق أيضا الى مجلس النوّاب بل أضحى له رئيسا ، ثم صار وزيرا للأوقاف أيضا يقتضى من الراتب ما يقتضى الوزراء !

ومظلوم باشا غنى فظيع الغنى ، يجرى وراء الدنيا والدنيا تجرى وراءه حتى لم تجد بين أولئك الملايين الذين يحرزون سندات بلدية باريز عائلا مسكينا محتاجا تحبوه ثمرتها الرابحة (١٠٠٠٠ جنيه) إلا أحمد مظلوم ! وله عمارات هائلة ، وأطيان تُعْيِى مصلحةَ المساحة ،وأوراق مالية يُخطئها العدّ،ونقود فى المصارف لا تكاد تُحيط بها الأرقام، إذ هو فى وسط كل هذا (يتيم) فرد لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت ولا ولد . ولكنه رجل شديد البرّ بأهله من أولاد الإخوة وأولاد الأخوات ، فانه ليضن على نفسه بالدانق والسحتوت، ويقمع نفسه عن التطلع الى شىء مما تتطلع اليه أنفس الناس من ملاذ الدنيا ومُتَعها إيثارا لهؤلاء، فهل رأيت برّا أعظمَ من هذا البر، و إيثارا أبلغَ من هذا الإيثار ؟ !

وكان له بيت يسكنه فى محطة (مظلوم) بالرمل، فلاحظَ أحد أصدقائه أنه اتخذ بجلوسه غرفة لا تصلُح لهذا فى حين قد امتلأ البيت بأحاسن الغرف، فراجعه فى هذا حتى فطن الى أن الباشا انما اتخذ هذه الغرفة لمجلسه لأن مصباح الشارع يقوم بازائها فلا تجشّمه نفقة الاستصباح !

وقد عمد الى كل قصوره فشق فى كل جوانبها الحوانيتَ ومخازنَ التجارة حتى انتهى به الأمر الى العيش فى (أوتيل كونتننتال) على أن يأكل فى (كلوب) محمد على فان الأكل فيه أضفى وأَمْرأ وأرخص !

وقد بنى له أخيرا بيتا صغيرا (فيلا) بازاء كلوب محمد على أقامها من طبقة واحدة، و يتساءل الناس لماذا لم يقمها من طبقتين الأولى حوانيت ومخازن، والثانية للسكن؟ فأجاب أحد الظرفاء بأنه سيبنى الدكاكين هذه المرةَ فى الطبقة العليا حين يعم نظام الطيارات إن شاء الله !

و بعدُ فما أعرف أحدا أمتن صبرا ولا أطول بالا من هؤلاء المساكين ورثة مظلوم، فقد انتظروا أدهارا والأعمار تتصرّم، والأنفس تتخرّم، والباشا، أحياه الله الحياةَ الطيبةَ، لا يزداد على الأيام إلا قوّة، ولا يُكسبه طول السن إلا شبابا وفتوّة . ولو كنتُ مكانَهم لقطعته فى أحد البنوك بحطيطة عشرة أوعشرين فى المائة كما تُقطع الكمبيالات ، ويحيا مظلوم باشا بعد هذا كما يشاء !!!



الوطنيّةُ الصحيحة تعمَل كثيرًا ولا تُعلِن عن نَفْسها

قاسم أمين

طلعت حرب بك

لا أحسبك تستطيع أن نتصوّر « بنك مصر » دون أن نتصوّر معه طلعت حرب ؛ ولا أحسبك تستطيع أن نتصوّر اسم طلعت حرب دون أن يتمثّل لذهنك فى الحال «بنك مصر» ! .

وكذلك شاء القدر أن يَقْرُن اسمَ هذا الرجل بأجلّ الأعمال .

ولو أن رجلا حدّثك من عشر سنين بأن سيكونُ فى مصر «بنك» يقوم على أموال مصرية، وتقوم عليه أيدٍ مصرية، لرددتَ حديثه من فَوْرك الى التزيُّد فى التمنى والمبالغة فى التخييل ! . ذلك أننا، ولا أكتمُك أشـدَّ ما ألحّ علينا من العِلَل، إنما كنا نتّكئ فى كل مهمّنا على محض التمنى وعقد الآمال بما عسى أن يَصنَع الغيرُ لنا ! أما أن نضطلِـع بعبئنا ونعالج شأننا بأيدينا، فذلك ما لم تكن تُطيقه أذهاننا ! ولقد طالت علينا هـذه الحال حتى دبّت الينا الظنون بأننـا لا نصلح لمعالجة عمل قومى، لا من عجز عن العمل ولكن من توهُّم العجز عن العمل، حتى توهّنت نفوسنا، وانبرت عزائمنا، وانخَذَلت هِمَمنا، وشاع فينا ضَعفُ الثقة، والثقةُ وحدَها متّكأ كل ما ترى من عظيات الأمور . واذا كنا قد عالجنا كثيرا من المشروعات القوميـة ففشِلنا فيها كلها، فذلك لأننا إنمـا كنا نُقدّر هـذا الفشل بحكم ما مَلَكَ علينا أنفسَنا من ضعف الثقة . وذلك شأننا كان فى كل ما نتطلّع اليه من مطالب الحياة ! .

وأذن الله تعالى لنا بالعافية وأحسسنا، بعد يأس ، دبيبها فى أنفسنا فى سنة ١٩١٩ وهبّنا أمةً تطلب ما تطلب الأمم، وتُهيّئ كتفيها لتنهض بما تنهض به فى سبيل مجدها الأمم .

ولست اليوم بسبيل ما قام به أبطال النهضة الوطنية جملةً ، ولكننى إنما أطوف بالحديث اليوم حولَ قطعة منه وهى النهضة المالية، وحول بطل من أولئك الأبطال وهو طلعت حرب . وهيهاتَ أن أصف قدر هذا الرجل الفاتح بأبلغَ ولا أصدقَ من أنه أقام لمصر "بنكا" عظيما يقوم على أموال كلها مصرية، وتقوم عليه أيدٍ كلها مصرية، وما شاء الله كان ! .

وإذا كان طلعت قد أقدم على هذا كله بعدَ إذ تخاذل الناس وأصبحنا ولا تظنّ نفس بنفس خيرا، فقدِّر أنت مبلغَ ماتسلّح به هذا الرجل من عزم وثقة حسبهما أن ملآ كلَّ هذه النفوسِ عزما وثقة ! .

وإذا كان طلعت حرب قد أفاد فى سبيله بنهضة سنة ١٩١٩ واستغلّ اشتعال النفوس بالوطنية، وتَنادِى الناس بالعمل على أسباب القومية، فقد أضاف الى العزم حزما ، وجمع الى الثقة والإقدام بصيرة وعلما، ذلك أنه عرَف كيف يتخيّر أسعَد الساعات وأكفأها لنجاح مشروعه العظيم .

لم يكن نجاحُ بنك مصر مقصورا على ذلك المدى الذى تدور فيه منافع البنوك، ولكن كان له نجاحٌ أوفى وأبلغ، هو أنه بثّ فينا الثقة وردّنا فى جليلات الأعمال الى أنفسنا، وأقنعنا بالحسّ الصادق أننا فى مجال العمل، غيرُ أهل للخذلان ولا للفشل ؛ فهذه شركات جليلة يقوم بها طلعت حرب كذلك،

ويرفدها بنـك مصر أيضا ، وقد قامت كلها قياما كريما، ونجحت كلها نجاحا عظيما :

هـذه شركة للحليج، وهـذه شركة للملاحة، وهـذه شركة للطبع ؛ ولعله ستتبعها شركة للغزل والنسيج، وأخرى لصنع الزجاج ، حتى إنى لأخشى إذا تمادى طلعت فى هـذه الشركات الناجحة أن يظنّ جَمْهرة الناس أن لا نجاح لسعى الجمـاعة إلا إذا قام عليـه طلعت حرب، وإلا إذا سانده بنك مصر؛ وفى هـذا مَسَاءة قد تستغرق ذلك الإحسان ! فليتدبر طلعت وليتدبر رجال الأعمـال .



وبعـدُ فطلعت بك حرب وإن لحِقَتْه السِّن ما برح له عزم الشباب : حضور ذهن، وقوة تصور، ومتانة ذاكرة، وجَـوْدة رأى، وصبر وجلد على معاناة كل ما يليه من أعمال جِسام .

وهو رَبْعَـة بين الطول والقِصَر، غير مُتَّسِق الجوارح، مستطيل الوجه، لا بالقسيم ولا الوسيم (١) ، لا يُرضيك ظاهره، فإذا لابسته تكشَّف لك عن حسن محاضرة، ولطف رُوح، وسلاسة نفس، على خلاف الظن به والرأى بادِئَ الرأيِ فيه ! .

واذا استحال هـذا الرجل شِعْرا ما عدا أن يكون قصيدة فى ديوان أبى تمام، لا تُعجبك مطالعه على أنك تقع بعدها على أَرْوَع المعانى وأشرف الكلام .

---

(١) القسيم والوسيم بمعنى .

ولقد تلقاه يوما فيُطالِعك بكل ما تَمْلِك نفسُه من أُنْس وبِشْر حتى لتحسب أنه أضحى قطعة من نفسك اذا كنت أنت لم تُصبح قطعة من نفســه، ولقد تلقــاه يوما آخر فيتولّاك بوجــه عَبُوس تكاد تُمثّل فيــه غَيْما ورَعْدا ومطــرا حتى لتشــعر أنك فى حضرة (زلزلة) لا فى حضرة رجل ؛ تُعينــه على ذاك الأذى عينٌ خَيْفَاء، فإن ترفَّقْتَ بها قلت عين حَوّاء، حتى لتُطرِق وأنت تبتهل الى ربك وتسأله أن يُلغى المـال من الدنيـا لكيلا تحتـاج الى رؤية طلعت حرب ! ! ولقد نتبحَّث الأمر ونتبيَّنه فإذا هذا (الحروب) سلم كله، واذا هذا التَّجَهُّم فى هذا الوجه لا يدل على أية غضاضة فى تلك النفس! إنمـا الأمرُ جميعُ الأمر أن الرجل تَنُوء به جلائلُ من الأمر فيها ما يَسُرّ وما يسوء، وفيها ما يبسُط أسارير الوجه وفيها ما يُرَبِّد ضواحيه ، ويعكر نواحيه ، وذلك الحظُّ الذى يدفعك اليه وهو فى إحدى الحالين . فلو ابتغيت قبل أن تُطالعه عَرَّافاً أو ضارب تحت رمل أو (فاتحة كوتشينة) لكان أرفق بك وأيمَن لحظك معـــه !

* * *

واذا كانـ فى بعض طلعت حرب ما لا يُعجب بعضَ الناس فلأنهم لم يفهموه ، واذا كان فيه ما لا يَجْمُل بالرجل العظيم ، فذلك أيضا من خلال الرجل العظيم ! .

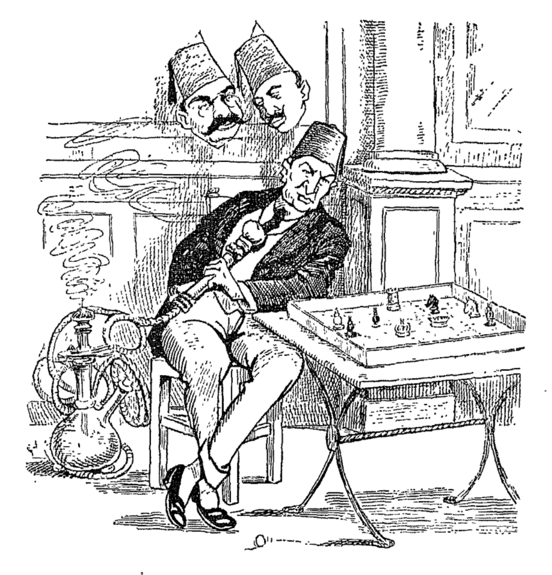
وإن تعجب لشيء فى شأنه فالعجب كله أنه عضو فى مجلس الشيوخ تعرض عليه ميزانيــة الدولة ، وتعرض عليه كل المرافق المـالية والاقتصادية فى الدولة، فيجول فيها لويس فانوس، ويصول فيها الشيخ حسن عبد القادر،

ويضرب فيها شيخ العرب يّس أبو جليل بجِرَانه ، وطلعت حرب مدير بنك مصر وأبو المشروعات المالية والاقتصادية فى مصر لا تُؤثَر عنه فيها طولَ «الدورة البرلمانية» كلمةٌ واحدة ! ! .

ولعل هذا أنه يريد أن يربأ بنفسه ، أو بعبارة أخرى يريد أن يربأ ببنك مصر وملحقاته عن أى نزاع سياسى على العموم أو حزبى على الخصوص ، طلبا للسلامة وإيثارا للعافية .

تعالى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عمرٍو * أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرجالِ





وجه مصطفى ووجه فريد . كلاهما لازم لوقت «الشّدّة» فقط !

حافظ رمضان بك

لو أنك لم تكن رأيتَ محمد حافظ رمضان بك وبدا لك أن تَتَمَثَّل رئيس الحزب الوطنى القائم على المطالبة بمصر والسودان، مضافا اليهما الملحقاتُ، سواء منها مافى يد الانجليز ومافى يد الطليان ومافى يد الأحباش، وجلاء الجيش الانجليزى بلا قيد، ولا شرط، ولا مساومة، بل ولا مفاوضة ولا اتفاق، ولا . ولا . الخ ... لما استطاع ذهنك أن يتمثَّله إلا رجلا عنيفا حادّ الطبع ثائرَ الأعصاب، اذا قاولَكَ، وبخاصة فى شأن عام، تَفَجَّر عن مثل بركان ! ... ولكن ... ما أعظمَ خيبةَ الخيال حين تقع عينك على حافظ رمضان بك ويضمك مجلسه، فانه لا يروعك إلا أن ترى رجلا وادعا هادئَ السَّعْى بطىء الحركة الى حدّ الجمود، تكاد تَقْطع بأنه قد فقد كلَّ اتصال بين أعصابه وبين مَعَارِف وجهه. حتى لتوشك ألّا يتغير عليها شىء من مظاهر العواطف المختلفة. وانه ليتحدّث اليك فى القانون، ويتحدّث اليك فى السياسة، ويتحدّث اليك فى جميع الأسباب الدائرة بين الناس فيجيد الحديثَ إجادة ينقطع من دونها الوصف، جزالة علم، وصحة رأى، ومتانة حجة، وقوة بيان، فى حلاوة نَبْرَة وعذوبة صوت، وانه ليُثير عواطفَك، وإنه ليَبْعَث معارف وجهك على التشكُّل طوعا لما أثار حديثُه فيك من عاطفة، أما هو نفسُه فساكِنٌ وادع، فتنصرف عنه وأنت تكاد تحسب أنك إنما كنت تسمع الحديث من (فونغراف) متقن بديع يدور فى هيكل إنسان !

والواقع أن الله تعالى قد وهب هذا الرجل قَصْدًا واَعتدالا فى كل شىء، فهو معتدل الخَلْق والتكوين ، معتـدل الأخلاق والسجايا ، معتدل الحركة والسعى، معتدل الحديث والرأى . وهو ، فى الوقت نفسـه، رئيسُ الحزب الوطنى ! ومبدؤه المطالبةُ بمصر والسودان والملحقات ، وجلاءُ الجيش الانجليزى عن جميع البلاد، بلا مساومة ولا مفاوضة ولا اتفاق !

الحق أنى لو كنت فى موضع حافظ رمضان بك لكانت مهمّتى أشقّ مهمة رجُل فى العالم . على أن حافظ بك يضطلِع بها فى غير كُلْفة ولا عناء! ولِلعظيم العظائم .

*
* *

ومحمد حافظ رمضان ابنُ المرحوم حافظ بك رمضان، وكان رجلا منقَطع النظير فى العِلم المالى يومَ لم يكن لمصرىّ فى هذا الباب خَطَر، وكانت أعظمُ المصارف، الأجنبيـة بالضرورة ، ترجع الى رأى حافظ بك فى أدقّ مسائل الفن وأبعدِها أثرا .

وأَنْجَبَ عدّةَ أولاد وأحسن تأديبَهم وتعليمَهم فخرجـوا جميعُهم رجالا ممتازين، فيهم القاضى وفيهم المحامى وفيهم الجندى، وها أنت ذا ترى أحدَهم، وهو الذى نعقِد له هذا الحديثَ، فى كِبار المحامين ورئيسَ حزب جليل الشأن فى البـلاد .

نعم، لقد بانت مواهب حافظ من يوم دَرَج لطلب العلم، ومابرِح يَبْرَع فيه أقرانَه حتى أحرز إجازة الحقوق (ليسانس) وأقبل على المحاماة مُجِدّا أمينا

حتى تمّت كفايته وبعُدَ فيها صيته ولما يزل بعدُ فى فوْعة الشباب[1]، يُعينه بها علم غزير، وعقل شديد، وبديهة حاضرة، وحجة قاهرة، وبلاغة ساحرة؛ كل أولئك فى صوت كأنما تختلج به أوتار عود . وكذلك كان حافظ بك خطيبا رائعا جليلا .

وقد اتصل من صدر إبّان الشباب بفقيد الوطن المغفور له مصطفى كامل باشا وظل معه الى أن قُبِض الى رحمة الله ، فكان شأنه كذلك مع المغفور له فريد بك الى أن شطّت به النوى؛ فما برح هو كذلك موصولَ الاسم بالحزب الوطنى حتى اختير له رئيسا .

ومما يُذكر له فى هذا الباب أنه كان دائما شديدَ التّوَاقى لأساطين الأحزاب الأخرى حتى فى الأوقات التى كان السيد وفيق يرميهم بالمُقذِعات فى جريدة الحزب من غير حساب !

ولقد يبدو لك حافظ رمضان بك كسولا لا يُحب أن يُجشِّم نفسَه من الأمر جليلا، على أنه اذا جَدَّ الجِدُّ كان أنشطَ من الكوكب السيار .

ومن أعجَب ما يُؤْثَر له من هذه النّاحية أنه قد بدا له فى صيف العام الماضى، إذ هو فى أوربا ، أن يتسلّق قِمّةَ جبال الألْب (Mont Blanc) وعبثا يحاول صُدْقانه[2] أن يصرفوه عن هذه النية؛ والعبث بالعُروج الى قمة الألب إنما هو ضَربٌ من العبَث بالحياة نفسها . ويجمع حافظٌ همّتَه وعنادَه معا ، ويخوض مهاوِيَ الموت خوضًا حتى يبلُغَ غايتَه ، ثم يتدلّى عن قمة الجبل (بالسلامة) والموت خزيان ينظر! ويظفَر بتلك الشهادة (شهادة المعراج الى

(١) فوعة الشباب : أوّله . (٢) جمع صديق كالأصدقاء .

قمة الألب) ولم يظفر بها من المقاديم إلا قليل ، فكان أيضا حَقّ (Sport) رَغم ما يُرمَى به من فرط الكسل وشدّة الخمول !

وهو شديد الوَلَع بالشِّطْرَنج حتى لقد يجلس الى رُقعَته خمسَ ساعات متواليات لا يلحَقُه فيها ضَجَر ولا يتداخَلُه سَأَم .

وَلقد يظلّ طِوالَ هذه المدّة وفمُ (الشيشه) فى فمه، أو فاغرًا فاه فلا تسمع منه إلا تَنَغُّما يهمِس به أحيانا، أو (كش مات) فى غاية كل دَسْتٍ ينعقد له فيه الظَّفَر !

وبعدُ فلا أدرى أكان حافظ رمضان بك فى قَرَارَة نفسه ومَطاوِى حسه شاعرا يُحلِّق فى أجواز الخيال أم لا ؟ على أن جِلسَته الطويلة يُوَسِّد فيها خدّه على كفه مهدَّل الشفة ثابت المَحْجِرَين فى جانب الأفق ، لقد تدلُّك على أنه شاعر بعيد الخيال، ولعل هذا المعنى فيه هو الذى يتخطّى سائرَ مواهبه فيعقِد الصِّلة بينه وبين مبادئ (الحزب الوطنى) !

ومع هذا كلِّه فلا مَحيص من أن تقع المشاكل بين حافظ بك وبين نفسه كلما (زنقته) الحوادث بينه وبين مطالب حزبه. ولكن حافظ بك، كما أسلفتُ عليك، رجل خَرَّاج ولَّاج، لا يُغمُّ عليه مُشكِل ولا يُعييه أمر جُسَام، فاذا حَزَبَه من ذلك شىء عمَد الى حل بسيط سهل معقول مقبول، وهو أن تُعجلَه مسألة (فيحط كتف) على أوربا معذورا مشيَّعا بطيِّب التمنيات !

أليس هذا حلًّا سائغا معقولا ؟

وبعدُ فاذا كان التطرُّف فى الرأى السياسى ضربا من الشِّعر، فما أعذَبَ هذا الشِّعرَ وما أحوجَ تكافُؤَ النَّزعات السياسيّة اليه؛ على أنه إذا تجاوز حدّه وخرج عن أُفُقه فقد أصبحَ له فى توجيه سياسة البلاد شأنٌ آخر .

ولو كان لى من الأمر شىءٌ لدعوتُ بشركة (حافظ رمضان — عبد الحميد سعيد اخوان) فخيّرتُها أمرين : إما ترك التغالى فى الاستجوابات والعوض على الله ، ولو مؤقتا ، فى الملحقات . وإما أن تتولّى الوزارةَ ، وعندَها مُهلَة شهرين لتجىء فيها بالنيل من منبعه الى مَصَبّه ، والملحقات وملحقات الملحَقات . والجلاء الكامل بلا مساومة، ولا مفاوضة، (وكمان) بلا اتفاق ! على شرط أن تُؤخذ عليها التعهدات ، بعدم (حططان الكتف) على أوربا وقت الأزمات ! ! !



على مُفوَّضِينا وقناصِلنا فى جميع أقطار العالَم مُوافاتنا تلغرافيا بآخر (مودة) !

ابراهيم وجيـــه باشا

طويل ، ضافى الجسم ، متراخى الأطراف ، تَتَسَرَّح العينُ منه فى منظَر غيرِ مُؤتَلف ولا متَّسِق، وبعبارة أخرى إن عينَك لا تكاد تسقط عليـه حتى تشعر بما بين خَلقه وبين (قيافته) من سوء التفاهم ! فهو شـديدُ العناية بهذه (القيافة) . وهو لا يُعنَى بشىء من مظاهِرِ الدنيا عنايتَه بها . وإنه لَيخَيَّل الىّ أنه يَطوِى عامّة ليله وصَدْرا من نهاره فى مطالعة مجلات (المُودَة) ونشرات (الشيك) وكلما سقط فيهـا على طَرِيف أسرع اليه فتجمَّل به وتأنَّق ، وتحلَّى به وتألَّق : فمن خواتيمَ تلمع فى الخناصر والبناصر ، من شـتَّى الألوان فى شتَّى الجواهر. ومن رِباط للرقبة (كراڤات) تحتار العين فى أزرقه وأسوده وأحمره، وأبيضه وأخضره وأصفره ؛ حتى كأنمـا قُدَّ من أنوار بُستان، ففيه من كل زهرة زَوجان، تجرى كلُّها فى مذاهبها حتى تلتقى عند لؤلؤة بيضاء ، أو زمرُّدَة خضراء، أو ياقوتة حمراء، فكأن هذا (الدبوس) من تلك الألوان، ملتقَى العُشّاق ومجتمعُ الخُلان . ومن حلة محبوكة ؛ (محذَّقة) مسبوكة؛ كأنما مُوِّه بها جلده تمويها، فاذا تبدَّى لك فيها حسِبته عاريا وهو كاسٍ! — الى حذاء! وناهيك بهذا الحذاء ! ليس يتَّخذ الباشا حذاءه من مصر كلها، ولا من أفريقيا أجمعها، ولا من كل ما يُدَسَّى من سِلَع الغرب الى الشرق، بل انه ليُفصَّل له تفصيلا من مصنع (lob) الشهير فى لندن، وثمنُ الزوج، على ما يروِى الباشا

نفسُه، تسعة جنيهات انجليزية (طبعا) . أما الحذاء نفسُه، كما شهدناه، فدقيقٌ لطيف، رقيقٌ خفيف، قاسٍ، على نعومته، شـديدُ القسوة حتى ليأبَى إلا أن يُخرج أَسِيرَتَه (رِجْلَ الباشا) صغيرةً دقيقة هَيْفاء !

فاذا أنت ارتفعتَ بالنظر الى طَرَفِه الآخر رأيت على رأسـه طربوشا طويلا ضيقا أيضا، على انه، ولله الحمد، على رأسه متّسِقٌ مسبوك !

وهو يُميله دائما الى ناحية من رأسه فيصوِّر لك من فضْل جبينه زاويةً لا أدرى مقدارَ حظها من الهيبة أو الجمـال !

ولو تمثّلتَه وقد بَعُدَ ما بين كتِفيه، وتقارب ما بين كَشْحَيْه، وما يزال يتقارب فى منازله الى مُسْـتَدَقّ حذائيه، لرأيت منه مخروطا معكوسا، أو على الأصح قِمعا مكفوءا !

قلت لك فى صدر هذا الحديث إن بين خَلْق وجيه باشا وبين (قيافته) افتراقا وسوء تفاهم، وأَكُرُّ على هذا الآن فأقول لك : انه مع كل هذا التأنقّ، وكل هذا التجمُّل، وكل هـذه النفقات، وكل هـذه التكاليف لا يزيدك فى مَرْآهُ على أميرالاى فى المعاش !!!

* * *

وابراهيم وجيه باشا رجل طيب القلب لا يَصْدُر عن أذى ولا يصدر عنه أذى، متواضعُ النفس، متواضع التّفكير. لقد أصبح فى الواقع وكيلا لوزارة الخارجيّة فى الدولة، ولكن أدبه وتواضعه لا يُطاوعانه قط على الترافع الى هذا المعنى، وانهما ليغُضّان حتى من تفكيره فى مُقتَضَيات ذلك المنصب الرفيع !

إنه لرجل متواضعٌ حقا فى كل شىء ! ولو أنك داخلته مهما داخلته ولابسته مهما لابسته، لا يمكنك أن تحس منه أيّ اعتداد بالنفس يشعرك أنه أصبح وكيلا لدائرة ، فضلا عن أنه أصبح وكيلا لوازرة خارجية الدولة نفسها ! وأيسرُ الدلائل على هذا موقفه العتيد فى مجلس النوّاب يوم ثار حديث (بيوت هوس) وما اقتضى خزينةَ الدولة من نفقات جِسام !

وهو كذلك رجل متواضع الحديث ، لقد يستغرق المجلس بالحديث عن نفسه لا عن مركزه فى الحكومة ولا عما يَعْتَرِى الدولةَ من مشاكلَ ومتاعبَ فى جغبوب، ولا مما يراد من فرض امتيازات لإخواننا الشوام أيضًا فى مصر، بله المفاوضات المقبلة فى تقرير مصير الدولة — بل إنما يحدّثك عن المفاوضات المقبلة بينه وبين طاهيه . وان له لطاهيا عظيما ، وان طاهيه لعبقرى؛ يَصْدَع بعبقريته حدودَ الفن ، أليس الطُّهاة جميعا يُقرِّبون، يوم الوليمة الى الضِّيفان، (البامية) بعد رأس الطعام (الحَمَل أو الدندى أو السمك)؟

ولكن طاهيه قرَّب مرة لضيفانه بعد رأس الطعام صَفْحَة من الفاصوليا الخضراء مباشرة ! . أليس هذا عبقريةً تستحق كل إعجاب وإطراء ؟ !!!

وسبحان من أودع كلَّ قلب ما شَغَله، واذا كان قلب وجيه باشا مشغولا بأشياء وأشياء ، فان قلبَه من شؤون الدولة كلِّها هَواء .

يُهَروِل فى الصغير اذا رآه * وتُعْجِزُه مُهمَّات كِبَارُ

وقد نسيتُ أن أذكر لك أن للباشا شاربًا لَبِقا هو الآخر، ظريفا، دائمَ التشكُّل والتكيُّف بحسب (آخر مودة) فتراه مرفوعا ومرَّةً مخفوضا ، وتارة

مفتولا وتارة منقوضا، وآنا مرسَلا وآنا (مكْوِيّا)، وحينا مستقيما وحينا ملويّا، وأسودَ يوما و يوما أغبر، وأصفرَ طورا وطو را أحمر .

ولا نُحب أن نَترَ الرجلَ حقه ، فقد أحرز إجازة الحقوق (ليسانس) فى غير عسر ولا تأخُّر فى الطلب، ثم دَلَفَ الى مناصب القضاء فرَقِىَ فى درجها واحدة بعد واحدة معروفا بالاستقامة والنزاهة والنشاط وعدم الميل مع الهوى، وزامَلَ ثروت باشا فى نشأته كما زامَلَه فى بعض المناصب التى تولّاها، وفى النهاية عُيِّن مستشارا فى محكمة الاستئناف المختلطة . فكان خيرَ مثال للكفاية والاستقامة ؛ فمستشارا ملكيا . وهنا بدأ القلق يَدِبُّ الى حظه من التوفيق فى مناصبه الحكوميّة !

واذا كان قد نُفِض عن القضاء جملةً وقُلِّد منصبا سياسيا (وكالة الخارجية) وبخاصة فى العهد الحاضر — عَهدِ المسئوليات الكبرى — فلم يتمكّن منه تمكُّنَه من منصب القضاء فليس الوِزر عليه هو ، ولكن على من أخطأَهم فيه التوفيق !



فان لم تكُ (المرآةُ) أبدَتْ وَسامةً ⁂ فقد أبدَتْ (المرآةُ) جَبْهةَ ضَيْغَمِ

حافظ ابراهيم بك

وجاءت نَوبةُ صديق حافظ فى (المرآة) ولم تُغنِ عنّى المطاوَلةُ ولا كثرة الدِّفاع، كذلك حتم أصحاب «السياسة الأسبوعية» وبذلك جَزَم القضاء :

فإنك كالليـل الذى هو مُدرِكى * وإن خِلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

إذن سأجلو حافظا فى هذه « المرآة » وأرمِى فيه بالقول، و إذن سأدخلُ فى الوَرْطة وتحقّ علىّ الكلمة فى كل حال ! وَيْحَ نفسى من عَنَتِ أهل العَنَت من القراء، فإننى إن قلت فيه خيرا قالوا : شهادة صديق لصديق فهى متَّهَمة مُهدَرَة، و إن قلت شرا قالوا : ما أنكرَه للوُدّ وما أكفَره ! .

وما لى لا أعوذ من ألسن هؤلاء بالحق، فالحق أَجْدَى من مصانعةِ هؤلاء. وعلى هـذا فإنى سأُطلِق كلمةَ الحق فى صديقى حافظ ، وأعوذ بالله تعالى أن يلحَقنى فيه قولُ ذلك الحكيم : «إن قول الحق لم يَدَع لى صديقا» ولا تنس بعد هذا ياسيدى القارئُ مبلغَ ما يضحِّى به الكاتب المسكين فى سبيل رسالة يؤدّيها قلمه اليك لتلهوَ بها خمسَ دقائق أو ستا، وهو لا يطمع منك فى أكثر من أن تَقْصِد فى حكمك، وتترفَّق فى نقدِك وشتمك؛ والتضحية فى هـذه المرة ليست بجسم يُتعَب ، ولا بمال يُغصَب ، ولا بقـلم يُغلَب ، ولا بسب يُجلَب؛ إنمـا هى باستهداف وُدٍّ دام إحدى وعشرين سنة للجَلْجَلة بَلْهَ الزوال؛

وهي كانت مَتْنَ الصِّبا ، وهي كانت نَضْرة العمر ، وهي هي الذكرى الباقية لحُلو الحياة لمن أبرمه مُرُّ الحياة !

ما لي قد غَشِيني من هذه العواطف المحزونة الوالهة ، حين عَرَض لي اسم حافظ ما لم يَغشَني قبلُ لاسم إنسان؟ وفيم كلُّ هذا ولعلِّي لا أُصيب في صديقي إلا خيرا ! حقا إني لأخشى أن أكون اليوم مريضا وأن الأمر كله من لوثة الأعصاب . فإن كنت معافًى صادق الوَزن فإنني أرجو أن يكون صديقي حين تقَع له هذه المقالة معافًى متَّزِن الأعصاب .

* * *

حافظ إبراهيم شاعر ، فهو يُحب الجمال ويجتمع له ، ويكره القبح وينعَى على أهله ، يجابِه بذاك مجابهة لا يتقي في القول ولا يتحرَّف ؛ وما إن طلع عليه فتى دميمُ الخَلْق غير مستوى معارف الوجه إلا قال له : يافتى ، ليس الوِزْر عليك بل على أبيك لأنه لم يؤدِّ مهرا ! وإذا اطَّردت نظرية حافظ فلا شك في أن المرحوم والده تزوّج على الطريقة الإفرنجية فلم «يدفع» مهرا بل هو الذي أخذ «الدوطة» !

جَهْمُ الصوت ، جهم الخَلق ، جَهْم الجسم ، كأنما قُدَّ من صخرة في فلاة موحِشة ، ثم فُكِّر في آخر ساعة في أن يكون إنسانا فكان « والسلام » ! أما ما يُدْعَى فَمَه فكأنما شُقّ بعد الخَلق شقا ، وأما عيناه فكأنما دُقَّتا بمسمارين دقا . وأما لون بشَرَته ، والعياذ بالله ، فكأنما عُهِد به الى «نقاش» مبتدئ تشابهت عليه الأصباغ والألوان فداف أصفرَها في أخضرها في أبيضِها

فى «بنفسجيها» ، نخرج مَزْجا من هـذا كلّه لا يرتبط من واحد بسـبب، ولا يتصـل بنسب . وإنك لو نَضَوْتَ عنـه ثيابه وألبسته دُرَّاعة من دونها سراويل، وأفرغتَ عليه من فوقها جُبة ضافية، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات، نِلته من فورك دِهْقانا من دهاقين الفرس الأقدمين ! فاذا جرّدته كله وأطلقته فى البرّ حسِبته فيـلا، أو أرسلتَه فى البحر ظننته دَرْفيلا ! ... ولكن ! ... ولكن آ كشِف بعد هذا عن نفسه التى يحتويها كل ذلك ، فلا والله ما النور بعد الظلام ، ولا العافية بعد السّقام ؛ ولا الغنى بعـد البؤس، ولا إدراك المنَى بعد طول اليأس ؛ بأشهى اليك ، ولا أدخل للسرور عليك من هذا حافظ ابراهيم !

خفيف الظل، عَذْب الروح، حُلْو الحديث، حاضر البديهة، رائع النكتة، بديع المحاضرة، اذا كُتِب لك يوما أن تشهَد مجلسَـه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك أنك فى بسـتان تعطّفت جداوله، وهتفت على أغصانه بلابله، وأشرق نرجسه وتألّق وَرده، فأذكراك طلعةَ الحِبّ : تانك عيناه وهذا خدّه! وتنفس فيه النسيم بسِحر هاروت، فأعجِبْ لمن ينشُره هذا الهـ يم كيف يموت! والبـدر فى مُلكه بين المجَرّة والجوزاء، يخلع على الروض حُلّة فضّية بيضاء، فلا تدرِى أأمست السماءُ فى الروض، أم أمسى الروض فى السماء ؟ .

ولم أر قطُّ رجلا أسرعَ منه حِفظا ولا أثبتَ حافظة؛ ولقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثِب فيها وثبا حتى يأتى على غايتها، واذا هو قد آستظهر أ كثرَ جملها، أو أبياتها إن كانت قصيدًا، واذا هى ثابتة

على قلبه على تطوُل السنين ، كذلك لم أر قط رجلا اجتمع له من متخيَّر القول ومصطفَى الكلام مُرسَلا ومقفًّى مثل ما ٱجتمع لحافظ ابراهيم ، فكان حقا له من ٱسمه أوفرُ نصيب . واذا كنتَ ممن يجرى فى صناعة الكلام على عِرْق وَهُيِّئَ لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب لصبَّ على سمعك عُصارة الشعر العربى وأَبدعَ ما ٱنتضحت به القرائح من عهد ٱمرئ القيس الى الآن . ويمكنك أن تَعُدّ بحق حافظا أجمع وأ كفى كتابٍ لمتخيَّر الشعر العربى عُرِف الى اليوم . وليتهم ، إذ يُشْرِف على السن ، بدلَ إحالته على المعاش يحيلونه على أحد (دواليب) القسم الأدبى فى دار الكتب ، إذن لعصموا عليها ذخيرةً هيهات أن تعوَّض على وجه الزمان .

واذا أردتَ أن تتعرَّف لون شعره والى أىّ وادٍ من أودية الكلام ينتسب ، فارجِع الى أكثر ما يهتِف به ويردّده من شعر من قبَله من الشعراء ، وإنه فى هذا الباب لَيؤْمن قبل كل شىء بالصنعة والديباجة ونَسْج الكلام ، وما بعد هذا عنده ففضْل . وهو يرى ، ولقد يرى معه كثيرٌ ، أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلُّق بدقائق المعانى وإن تزايلتْ من دونها الالفاظ ، وأن أدقّ المعانى وأجلَّها لقد تقع للدهماء فى حوارهم ومنازع كلامهم ؛ أما إشراق الديباجة ونصاحة القول وتلاحُم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر . أليس يَبْهَرُكَ ويَروعك ويُشيع فيك كلَّ الطرب قولُ البحترى مثلا :

ذاك وادى الأَراك فاحبِسْ قليلا مقْصِرا فى ملامةٍ أو مُطيلا
لم يكن يومُنا طويلا بنعما نَ ولكن كان البكاءُ طويلا

وقـــوله :

وقفةً بالعقيقِ نَطْرح ثقْـلًا * من دموعٍ بوَقْفَة فى العقِيق

وقول الشاعر :

يا ليتَ ماءَ الفُـرات يُخْـــبرنا * أين تولَّتْ بأهلها السفُن

وقول الشاعر العربى :

فسائل بنى جَرْمٍ اذا ما لَقِيتَهم * وسعْدا اذا حَجَّت عليكَ بنو سعْدِ

فإن يُخبروكَ الحقّ عنّى تجِـدْهُمُ * يقولون أبلَى صاحبُ الفَرَس الوَرْدِ

وغير هذا من رائع الشعر ما لا يتناوله الحصر .

و بعد، فأىّ معنى فى مثل هذا يرتفع على ما تَبْتذِل به العامة فى أحاديثهم وأسمـارهم وفنون مناقلاتهم ! إنما خطره كله فى لطف الصياغة وشدّة القول وقوّة الأسلوب،ولو قد ذهبتَ تُؤدّى بلغة أخرى أنخَرَ مانظم البحترى وأبو تمام وأضرابُهما من أعيان الشعراء ماخرجتَ من ذاك بجليل، بل لو انك تعمَّدتَ أبلغَ ما قالوا فنقضتَ غَزْله ونثرتَ نظمه ما عَدَا أن يكون كلاما من أوسط ما آعتاده الناس من الكلام !

هذا رأى حافظ فى الشعر، وتلك أيضا صورة من شعره! مشرق الديباجة جَزْل اللفظ، صافى القول، محكم النَّسْج، رصين القافية . ترى معناه فى ظاهر لفظه، فاذا أقبل عليك يُنشِدك من شـعره أبصرت البيت يَسْتَشْرِف وحده للقافية آستشرافا حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطِق بها حافظ ابراهيم .

وحافظ، كما أسلفتُ عليك مؤمن كلَّ الإيمان بالصنعة، ولقد يَسْنَح له المعنى الدقيق فيحاول أن يُشَكّه بالقريض، فإن أصابه فى غير قَلَق ولا إعنات للّفظ أو إخلال بقوة النظم، وإلّا صَرَف لغيره وجهَ القريض؛ ولربما أصاب المعنى الرفيع فيَسَّره للنظم تيسيرا حتى يخيل لك، اذ تتلوه، أنك فى كلامٍ من جنس سائر الكلام !.

وهو، كما حدّثتُك، حاضر البديهة رائع «النكتة» يتعلق فيها بأدقّ المعانى فى جميع فنون القول؛ فلا يحتويه مجلس إلا رأيته يتَنَزَّى تَنَزِّيا من ضَحِكٍ ومن طرب ومن إعجاب. وهو كذلك شديد الفطنة حُلو الملاحظة لا يكاد يَعْرِض لسمعه أو لبصره شيء إلا وَجَّه عليه رأيا طريفا يصوغه فى « نكتة » عجيبة قد تستقرّ على سُطوح الأشياء، وأحيانا تتغلغل الى الصميم حتى تتكشّف الأيام منها لاعن طُرْفةٍ متطرِّف ولكن عن رأى حكيم! وهو لا يتحامى فى تطرُّفه ولا يتحرّج، فتراه يقتحم عليك بتَنَدُّرِه كلَّ مداخِلِك أنَّى سَنَحَت له آقتحاما، فيُصيب من خَلْقِك ومن ثيابك ومن أثاث بيتك ومن طعامك؛ على أنه فى كل هذا مُرضيك ومُؤْنِسك وباسطٌ أسارِيرَ وجهك إن لم يُفَرِّج بالضحِك من ثناياك، فأما اذا كنت رجلا ضيق العَطَن مُتَزَمِّت النفس فلا خير لك فى مجلس حافظ ابراهيم.

وهو أجود من الريح المُرْسَلة، ولو أنه آدّخر قسطا مما أصابت يده من الأموال لكان اليومَ من أهل الثَّراء، على أنه مافتئ طِوَالَ أيامه يشكو البؤس حتى اذا طالت يده الألفَ جُنَّ جُنونُه أو ينفقها فى يوم إن آستطاع.

فاذا آستغلقت عليه أحيانا وجوهُ السبل لإتلاف الأموال عَدّ هـذا أيضا من معاكسة الأقدار ! ولعل هـذا من أنه نَضِجت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) وقال فيـه مالم يتعلق بغباره شاعر، فهو ما يَبْرَح يطلب البؤس طنبا ويتفقّدُه تفقُّدا إيثارا لتجويد الصنعة والتّبرِيز فى صِياغة الكلام . وتلك دعوة كانت للرحوم الشيخ محمد عبـده أحسب حافظا يحققها بيـده اذا قَصَّرت فى تحقيقها الأيام . وإنه لفَنّان (Artiste) حقا ، وإن فيه لَكُلَّ أخلاق الفنانين : تَوَلّه بالطعن من جميع أقطاره ، فقد يسامحك ويتراخى بالصفح عنك ؛ أما أن نتولّى فنّه وتَسلُك بالطعن صنعته ، فذلك الكسر الذى لا يُجبر ، وذلك الذنب الذى لا يُغفر ، وذلك مُثَار الدمع ما يزال هاميا ، وذلك مُتَنَزّى الجُرح ما يفتأ على الزمان داميا .

والعجب أن حافظا نفسـه ضيق العَطَن قليل الصبر سريع الغضب ، وياويلَ الأرض منه والسماء اذا تعجّل أمرا فأُلبِثَ دونه دقيقة واحدة ، إذن لهاج هِياج الصبيّ فما يُجدى فيه التصبير ولا التعليل . وما أبدعَ غضبتَه وما أحلاها ساعة يَهُمّ بركوب مركبة فى الطريق فيرى الخيل قـد خُلِعت عنها أرْسانُها ، وهنـاك تسمع منه ، وهو يكاد يتميز من الغيظ ، أَبدعَ النكات وأدقّها ، وقد عَجِلت اليه الشيخوخة قبل السنّ ، وضربته أعراضُ السبعين اذ هو لم يَنَزّف كثيرا على الخمسين ، فغاض من أُنسه غير قليل ، وشُغِل بالمرض أو بتوهُّم المرض ، فما يلقاك إلا أَبثّك عِلّة طارئة وطالعك بشَكَاة جديدة ، وتقسم أوهامه مراجعـة الأطباء والمتطبيين ، وترديد النظر فى كتب الصحة والأقرباذين ،

فما سمع بعلة إلا أحس أعراضها ، ولا وقع على عقّارٍ من العقاقير إلّا اتخذه وتداوى به !

ومن أظرف نوادره أن صديقا له لقيه مرة فى الطريق وهو منقبض النفس، متربِّد الوجه فسأله مابه ، فقال له : (إن المُصْران الأعور عندى ملتهب) فقال له صاحبه : وبماذا تشعُر؟ فقال : أشعُر بوجَع شديد هاهنا، وأشار بيده الى جنْبه الأيسر ، فقال له : (إن المصران الأعور) إنما يكون فى الجنب الأيمن لا الأيسر! فأجابه حافظ من فوره : (يمكن أكون أنا ياسيدى أعور شمال) !!!

* * *

ولا أحسب شاعرا يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ ، وإن له لصوتا جَهيرا نَخْما رائع المقاطع ، فاذا هو وَقَفَ يُنشد الجماهير هزَّها هزا ورفع بالترتيل حظّ الكلام درجات على درجاتٍ .

ولاننس لحافظ يدا جليلة على اللغة العربية بما نظم وما نثر إنشاءً وترجمةً ، فلقد طالما استخرج من مَجْفُوِّها صِيَغا طريفة بليغة أدّت كثيرا من الأسباب الدائرة بين الناس مما تحرَّك معانيه فى الأنفس ويُعْيِي أداؤُه على الأقلام .

وحافظ ابراهيم ، ولا شكَّ ، من مفاخر هذا العصر ومن مباهجه معا . أسأل الله أن يَبسُط فى عمره وأن يرزقه العافية ، على أن يقتنع هو أنه فى عافية !

وبعد، فاذا كنت ياصديق قد وَتَرْتُك بعضَ حقك ولم أعرض جميع مزاياك فلكيلا أجعل لأحد سبيلا الى الاتهام ؛ واذا ظَن بي شانئ أنى لم أتسقَّط كل هَنَاتِك، إن كانت لك هناتٌ أخرى، فما كان الوُدّ ليريَنى إلا الخيرَ فى أصدقائى؛ على أننى أعتذر اليك فى الأولى؛ وأعتذر الى القرّاء فى الثانية، وأستغفر الله فى الحالين ، وأسأله تعالى أن يصرف عنى مِحْنَةَ الكتابة ويتوب علىَّ من فن الكلام .



وَهَمُّهَا فِى العُلَا والمجدِ ناشئةً * وهَمُّ أترابِها فى اللَّهوِ واللَّعِبِ

هـــدى هانم شـــعراوى

لقد تعرف أن العَرب إنما أخذوا عِلم المنطق عن اليونان وعرّبوه تعريبا ، ودوّنوا فيه الكتب ، وأشاعوا البُحُوث ، وضربوا الأمثلة ؛ على أنهم فى كل ذلك لم يخرجوا عن الأفق الذى رسمه اليونان حدًّا للمنطق تدورُ فيه قضاياه ، وتتكيَّف أقيسته فى أشكاله المقسومة ؛ وكل أولئك مَرَدُّه عندهم الى العقل ، والى العقل وحده ، فأما القضايا الوجدانية ، وأما الأقيسة الشعرية ، فلا اعتبارَ لها ولا اعتدادَ بها فى معرِض الاحتجاج .

وبهذا أضحى المنطق شبيها بالرياضة إن لم يكن شُعبةً منها . وأما الفلسفة الحديثة ، فلسفة الغرب ، فقد تبسَّطَت قواعدُها حتى تناولت نَجْوَى القلب وحديثَ الوجدان ! وأَدخلت هذا فى جملة الأقيسة التى تُعتبر نتائجها ؛ ولقد يكون هذا من الحق ، فإن شعور النفس أحيانا لا يقل صوابا عن حساب الذهن ، بل لقد يسبق الوجدانُ أحيانا ويستشرف الى ما لا يهتدى اليه العقلُ ، وينقطع من دونه جُهد التفكير ، فليس عدلا وليس حقا أن يُسقط الإنسان هذه الأَداةَ القوية النافذة من أسباب تعرُّفه واستكناهه لحقائق الأشياء !

على أن هذا أيضا لا يَسلَم من الخَطَل ، فكثيرا ما يكون مَوقعُ الرأى فى الوجدان أثرا من آثار الهوى ، أو حكم البيئة ، أو الظرف الخاص ، أو طول

الاعتياد ، أو نحو ذلك مما تتّجه به نزعات النفس دون أن يكون للحقائق في نفسها أيّ اعتبار .

وإنما سقتُ هذه المقدّمة الطويلة ، المملّة أيضا ، لأقرر أنني ، في مسألة المرأة رجُل رجعيّ ، لا أُردُّ هذا الى قياس منطقيّ عقليّ ، على الطراز القديم ، إنما مَردّ الأمر كله الى قياس وجدانى على الطراز الحديث . نعم لا أدّعى أننى حرّكت في الأمر عقلى فأثبتَ لى ، بعد ترتيب الأقيسة المنطقية ، أن «نهضة المرأة المصرية» غير ميسورة أو غير صالحة ، إنما هى نَزْوة الوجدان لا تُلهمنى من هذا إلا أسًى وتطيّرا !

*
* *

وأهاب بى صَديق : «فيم تقصُر مراياك على الرجال وفى النساء من هنّ افضل من كثير؟» وأوّل من تَنَظَّرت لى من سيدات العصر ، من غير تردّد ، هُدَى هانم شعراوى ، ولكن ! ... سُرعان ما مَثّل لى تداعى المعانى أيضا مسألة «النهضة النسوية» إذن سأكتب في السيدة هدى هانم شعراوى ، وإذن سأعرِض ، برغمى ، لحديث «النهضة النسوية» .

على أننى لم أرَ السيدة النبيلة ، ولا بد لى قبل أن أُريها مِرْآتى أن أراها ، ولا بد لى قبل أن أتحدّث عنها أن أتحدث اليها ، فكيف السبيلُ الى كل ذلك ؟ ... ذلك أن أتشفّع اليها بصديق لأسألها في مسألة خيرية .

ولقد تفضلت السيدة الكريمة وأذنتْ لى في التمثُّل لها في قصرها الفخم القائم بإزاء دار الآثار ، أو القائمة بإزائه دارُ الآثار .

مَضَيت الى الموعد ورأسى يزدحم بجلائل الأفكار عن هذه السيدة النبيلة المزدحِم تاريخُها بجلائل الأعمال . ولقد ثار المصريون فى صدر سنة ١٩١٩ يطلبون نصيبهم فى الحياة ، وأبَتْ كرائم السيدات أن يتخلَّفن فى الخدور فَنَفَرْن ، فى خفة الى الجهاد ، وفى طليعتهن كانت السيدة هدى هانم شعراوى ؛ ولقد يُسيغ الرجل الرجعىّ « مثلى » هـذا لأننا كنا فى جهاد . وهل خلا جهـاد من أثر للسيدات عظيم ؟ وهادَنَنا الانجليز وهادنّاهم ، وسكت المدفع وتكلمت السياسة ، ورأت أكثر العقائل الى خدورهن تاركات ذلك للرجال ؛ فذلك ، فى رأيى ، من شأن الرجال وحدَهم . وأبت هدى هانم ، فى سرب من ربات الحِجال ، إلا أن تجول فى السياسة مَجالا . ولعله عزَّ على بنت سلطان باشا الذى مثَّل خديو مصر فى البلاد يوم حاصر العرابيون الخديو فى الاسـكندرية وكَنَّود عن ولاية الحكم ، والذى جَرَّد عليـه بعض الثائرين السـيف فلم يَتَزَعْزع عن التشبُّث بمـا اعتقده منجاة للوطن ؛ ولعله عزَّ على زوجة على شعراوى باشا الذى كان ثالث ثلاثة خاضـوا ، فى يوم الرَّوع ، مدافعَ السـلطة وأسِنتَها ، وراحوا يقولون لعميدها فى شمم وقوة : إن مصر تريد حريتها لأنها لا تطيق حياة الرِقّ ، فاذا كنتم ترومون أن تتصلوا بها فلتكن صِلَة الأَكْفاء بالأَكْفاء لا السادة بالعبيد ــ لعله عَزَّ على هذه السيدة التى خاضت المجدَ من كل أنحائه أن تسكن أو تبلغ مصر غاية مُناها من الحرية والاستقلال .

على أنها ما لبثت فى مَيْدان السياسة أن فطنت الى أن لهـا مهمة أخرى لو حَرَّرت لهـا مواهبَهـا العظيمة ، لكان ذلك أَرَدَّ على بنى وطنها ، بل على

قضية هـذا الوطن . ولقد اجتمع للسيدة هدى هانم ما لم يجتمع لكثيرات فى هـذه البلاد، اجتمع لهـا الحَسَب، والغنى، والذكاء، والنشاط، والغَيرة الشديدة على النفع العام .

وشاء الله لهدى هانم ، أو على الصحيح ، شاء لحظ مصر أن تُقبِل هذه السيدة بكل مواهبها على ما هو أخْلَق بهـا، فرأت أن المرأة المصرية مظلومة فحق أن تُنصَف ، محرومة، فحق أن تُعطَى ، جاهلة ، فحق أن تتعلَّم؛ وأنفقت ما شاء الله من مالها وجاهها ومساعيها حتى شَرَعت الحكومة قانونا لِسِنّ زواج البنت، وحتى فرَضت من عنايتها نصيبا عظيما لتعليم البنات، وما زالت السيدة تلحّ بمساعيها على الحكومة فى شأن المرأة، وما زالت عناية الحكومة تتّسع لهذا الإلحاح الكريم .

أما من جهتها هى فقد راحت تعمل على تهذيب المرأة المصرية وتعليمها ورفع شأنها بكل ما دخل فى إمكانهـا من الذرائع : فمن إنشاء مدرسة ، الى إقامة ملجأ، الى تشييد مشغل، الى نشر مجلة، الى إلقاء المحـاضرات العامّة فى شؤون التربية والتعليم .

ولم تقتنع بكل ذلك فأقامت مصنعا للخزف تُحيِي به صـناعة وطنية قديمة من جهة ، وتَعصِم به من جهة أخرى طائفة كبيرة من الفتيان المتبطّلين من التشرد والاطّراد فى طرق الشر والإجرام . ويضيق العمل فى داخل البـلاد عن مساحة همتها فتهاجر كل عام الى ديار الغروب لتهتِف باسم مصر وتُعلى من قَدر المرأة المصرية هناك .

وأظنُّ السيدة هدى هانم شعراوى أوّل سيدة مصرية مثّلت بنات جنسها فى بلاد الغرب ، فقد وَفَدَت على روما من بضع سنين واتنظمت عُضوا فى المؤتمر النسوى الذى عُقد هناك ، وألقت بين أهله خطابا نفيسا دلَّ القوم على أنهم كانوا فى عقيدتهم فى السيدة المصرية جِدَّ مخطئين .

ووَفَدَت صيفَ هذا العام على باريس ودخلت عُضوا تنوب عن نساء مصر فى المؤتمر النسوى الذى حضره رئيس الوزارة ووزير المعارف كلاهما . ومما يُذكر لها بالإعجاب أنها لاحظت أنه قد رُفِعت فى قاعة المؤتمر أعلامُ الدول التى ينتمى اليها الأعضاء جميعا ماخلا مصر، فلم تتوانَ عن الجَهر بما لاحظت، فاعتذر اليها القائمون بشأن المؤتمر وأكدوا لها جُهْدَ قواهم أن الأمر لا يمكن أن يُصرَف إلا على مجرَّد السهو ، و بادروا الى العلم المصرى فرفعوه بين التحية والتصفيق؛ ولما انُتخب أعضاء لجنة المؤتمر التنفيذية كان بينهن، ولا فخر، ممثلةُ نساء مصر هدى هانم شعراوى .

كل هذه الأفكار كانت تساورنى فى طريق الى قصر السيدة هدى هانم شعراوى ، إلا أننى ، كما أسلفت إليك ، فى مسألة «النهضة النسوية» رَجعى . واذا كنت أخاف شيئا من وفادتى تلك ، فهو أن تُغيّر السيدة هدى هانم رأيى فى المرأة ، والمرأةِ المصرية على وجه الخصوص!

وأنت اذا جَدّدت فى التفكير انتهيت الى أن أكثر ما يستريح اليه الناس وما يحتِمون عليه قلوبهم فى معاقِد آرائهم مَدِينٌ لهذا النوع من الأنانيَة فى الإنسان؛ و إن المرء ليؤمن بالرأى حتى ليقاتل فى سبيله و يبذل مهجته من

دونه ، وما كان هذا الرأى نتيجة منطق سليم ولا وليد تفكير صحيح . بل لقد يكون أثرا من آثار التقليد أو طول الاعتياد أو حكم الظرف الخاص أو غير ذلك من مختلف الأسباب . وإن الزمن ليَعقد بين المرء ورأيه إلْفًا ومَوَدَّة ؛ وتلك العلةُ فى نفورك من كل من يكشف لك عن مواقع الخطأ فى رأيك ويحاول أن يُزعجك عنه الى ما ربما كان الصوابَ . ولقد لمس المتنبى هذا المعنى فى قوله :

خُلِقتُ أَلُوفا لو رجَعتُ الى الصِّبا ✻ لفارقتُ شيبى مُوجَعَ القلبِ باكيا !

* * *

وبلغتُ قصر السيدة الفَخْم وقادنى الخادم الى غرفة صُنعت على (الطراز العربى) وقد افتنّت اليد الصَّناع فى سَقْفها وجُدرانها ومحاريبها وأثاثها وثُرَيَّاتها وصُوَرها وتَهاوِيلها حتى خُيِّل الىَّ أننى إنما أعيش فى القرن الرابعَ عشر لا العشرين . وجاء شابٌّ من قَرَابة السيدة فدعانى وسار بى نخُضْنا بَهْوًا عظيما هائلا يتحيَّر الطرف فى بديع أثاثه ورائعة تُحَفه ، حتى أَفضَى بى الى غرفة مبسوطة الجَنَبَات أُثِّثت بفراش من طراز لويس السادسَ عشر ، وزُينت جوانبها بغَوَالى الطُّرَف ، كما زينت جدُرُها بأبدع ماجالت به أيدى المصوِّرين . والواقع أن عينك لا تقع ، أنَّى دارت ، إلا على مظهر من مظاهر الغنى ؛ إلا أن ذهنك سُرعان ما يستغرقه شعورُك بما فى ذلك النظام من دقة ذوق وروعة جمال . وهناك استقبلتنى السيدة النبيلة مرحِّبة وأومأتْ الى كرسى كبير (فوتيل) فجلستَ وجلسْت .

ولست أعالج من وصف سيدة ما أعالج من وصف الرجال فى هذه «المرآة» ؛ إلا أنى لا أكتم القارئ أن هذه السيدة تحيط بها هالة من جلال تحسر النظر عن تصفح ما فى معارف وجهها من قسامة وجمال ؛ وذلك البريق فى عينيها قل أن يقع على محدثها بل أنها لتشرد به فى ناحية أخرى فى فتور طرف ؛ على أنك لو استطعت أن «تنشل» منه فى غفلة منها نظرة واحدة أقنعتك تمام الإقناع بأن نظرها إنما يتجاوز المحيط الذى أنتما فيه ببعيد ، والواقع أنها سيدة مفكرة ؛ والظاهر أنها لا تنقطع عن تفكير عميق . محتشمة الثوب ، محتشمة المجلس ، محتشمة القول ، محتشمة الابتسام .

وانتهى دور التحية ولم يبق لى بد من الكلام . فقلت لها : ياستى ، إنما جئت لأسألك فى بعض ما تعانين من الأعمال ؛ فأجابتنى فى دهشة قد تنطوى على شىء من الإنكار :

— لقد أخبرونى ياسيدى أنك آتٍ لتسألنى فى مسألة خيرية !

— وهل ثمّ خير أبلغ وأجمع مما تعالجين ياسيدتى من وجوه الأعمال؟

— تفضل فسلْ عمّا شئت .

— قبل كل شىء لا أكتمك أنى رجل لا أقول بالسفور ولا أذهب مذهب السفوريين ؛ بل إنى أعترف بأكثر من هذا ! أعترف بأنى فى مسألة «النهضة النسوية» ما زلت رجعيا :

— رجعى ! ولماذا؟ وما حجتك على هذا الخلاف لجماعة السفوريين؟

— لست أتكلف لهذا حجة ؛ بل لعله رأى طبعتنى عليه البيئة بحكم نشأتى فى بيت محافظ .

وهنا ابتسمت السيدة النبيلة ودارت ببصرها دورة سريعة وقالت فى بطء يتَداخَله شيء من العَجَب : وأين نشأتُ أنا ؟ ! ... وكأنها بهذه الكلمة الصغيرة تقول لى بأبلغ البيان : وهل نسيتَ أننى نشأت فى أكبر بيت فى الصعيد له كلُّ تقاليده المأثورة ، وعاداته القاسية الموروثة ؟ فأجبتها من فَوْرى ، وهذا ياسيدتى مما يَزيد فى العَجَب !

— ليس الأمرُ بِدْعا كما تظن ، فان أمة تريد أن تحيا وأن تأخذ مكانها تحت الشمس إنما تعبَث بعقلها وكرامة تفكيرها اذا ظنّت أنها بالغة من ذلك ونصفُها أشلّ ! وكيف يرقى الرجال اذا لم يَرْقَ النساء ؟ وكيف ينتظم حال بيت تديره آمرأةٌ جاهلة لا رأى لها فى الحياة ولا كرامة ولا خَطَر؟ وكيف تريد للأمة رجالا صالحين أكْفَاء للحياة المَجِيدة القوية اذا كان يتولّاهم فى بدء نشأتهم ويَطْبَع تفكيرَهم أمهاتٌ جاهلاتٌ وضيعاتُ التفكير ؟

— يلاحَظ ياسيدتى أنه فى هذا الوقت الذى قوِيتْ فيه الدعوة الى السفور خرجَت كثيراتٌ من السيدات عن آفاقهنّ سواء فى ملبسهنّ وفى غير الملبس من مطالب الحياة ! . وتُرَى هل هناك صِلَة بين الأمرين ؟

— إن دعوة السفور ما كانت يوما لتنطوى على هذا التبرُّج وهذا السلوك الذى تُنكره ونُنكره كلنا معك ، فاذا ظن ظانّ أن من السفور ما تفعل بعض سيداتنا ، مع كثير من الأسف ، من الابتذال فى مجالس الرجال والرقص ونحوه فهو فى أشدّ الضلال . واذا كان بعضُ السيدات قد تطرّفْن فى سلوكهن فما كان ذلك إلا نتيجةَ «التطوّر» الاجتماعى ؛ ونحن اذا دعوْنا الى السفور وعمِلنا

بجهدنا على تحقيقه فانما نفعل ذلك لنكبح جماح هذا «التطوّر» ونسير بالمرأة الشرقية فى الطريق النافع المأمون .

— وإنك ياسيدتى لَتُجاهدين كثيرا فى أعمال البِرّ، فهل لك أن تُصوِّرى لى شعورَك كلما أدركتِ من عملك نجاحا ؟ .

— إننى اذا كان قُدِّر لى فى مساعىّ نجاح كما تقول فان شعورى مشغولٌ عنه بمعالجة مالم يتهيَّأ بعدُ له النجاح . ثم قالت فى تواضع عظيم : إن خُطَانا مازالت بِطَاءً وخُطَى الأيام سِرَاع !

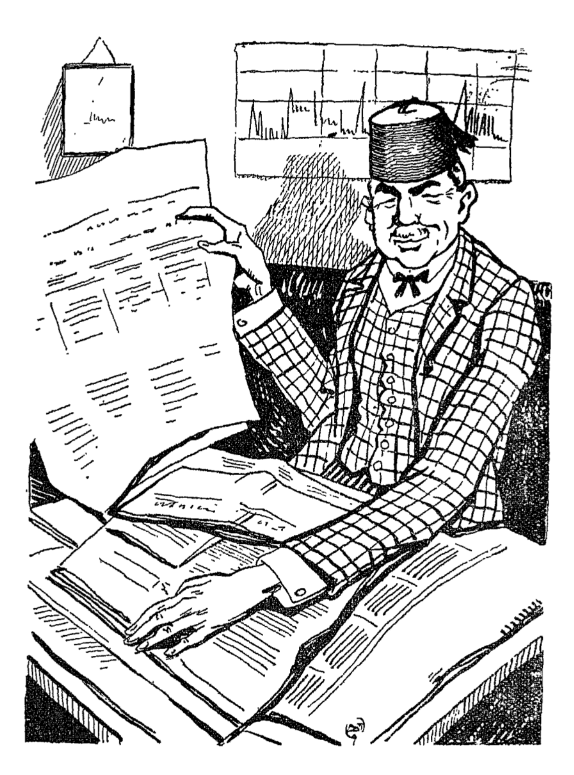
— لعلك ياسيدتى لا تزنين تمام الوزن أثَرَ المجهود العظيم الذى بذلتِه على الأيام لأن أقل الناس إدراكا لنموّ الطفل هما أبواه .

— على كل حال فانه ما زال بيننا وبين الغاية التى نطلبها بَوْن بعيد، فاذا لم نُدركها نحن رجونا أن يُدركها مَن بعدَنا مِن الأجيال .

* * *

وهنا استأذنتُها داعيا لها بالصحة وطول العمر ؛ وانصرفتُ لا أدرى أبَقيتُ على رأيى « الرجعىّ » فى النساء أم لا ؟ إلا أننى رأيتُ لسانى يردّد قولَ المتنبى :

ولو كان النساءُ كمَنْ رأَينا * لفُضِّلَت النساءُ على الرجال



من ذخائر الأمم

اسماعيل صدقى باشا

ما رأيتَ رجلا افترقتْ فيه أهواءُ الناس كما افترقَت فى اسماعيل باشا صدقى : فلقد أحبّه قوم أشـدَّ الحب ، وأبغضه قوم أشدَّ البغض ، وبقىَ فيـه آخرون متحيِّرى المذاهب مترَجْرِجى الآراء . وليس يَشْغَل الناسَ بكل هذا إلا عظيمٌ .

ولقـد رزقه الله قَصْـدا فى كل ضواحى خَلقـه : فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالبدين ولا بالهزيل ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ؛ له وجه لطيف مستدير ، وفم حلو تترقْرَق عليه ابتسامة حُلوة ، يحدثك فى هَوادَة وظَرْف حتى لترى فيه خَفَرَ الكاعِب وارتياحَ الغلام ؛ ولا تجده ، مهما لَجَّ بكما الحديثُ وتعلق بما يحفِّز ويثير ، إلّا وادِعَ النفس مطمئنَّ القول عذب الصوت ، يقاوِلُك فى الجُلَّى كما يقاولك فى أتفه الشئون حتى لتحسبن هـذا الهيكل الذى يجتمع عليه نظرك لا يُجِنُّ إلا طاقات من الزَّهرَ ، أو قِطَعا من نسيم السَّحَر ؛ فلا غضـب ولا مراح ولا ضِغْن ولا وَجْد ولا غريزة من تلك الغرائز التى تتفجَّر فى صدور جميع الأحياء ! ولكن ارفع بصرَكَ الى عينيه تجد هنـاك كلَّ ما يصـول به اللسان ، وتتنَزَّى به فى الحادثات جوارحُ الانسان ! ...

ولِصدقى باشا عينان حديدتان ، وهما مستديرتان فى غير سَـعَة ، وقد ركَزَ الله فيهما مظاهرَ كلِّ ما فى الرجل من ألوان العواطف ، فاذا استرسلَت نفسُـك منه الى مثْل صفاء الغدير ، فاحذر فلعلَّك بين براثِن لَيْث خادِر ! .

ولِصدقى باشا صَلْعةٌ شديدة الوضوح تنحدِر الى مؤخَّر نافوخه حتى لتعرفنَّه بها مولّيا كما تعرفه مقبلا .

ويَهب الله له دِقّة فى الحس وصفاء فى الذهن لم يهبهما لكثير من الناس . واليهما يرجع الفضل أعظمُه فى كل ما أدرك من براعة ونُبوغ . ولِصدقى باشا كلُّ مواهب الرجل الفنِّىّ حقا ؛ وإنه لم يعالج من يوم نَشْأَته الى هذه الغاية موضوعا فى هذا الباب إلا بَرَعَ فيه وأَوفَى على نهاية الإحسان ؛ وبهذه المواهب تهيأ لاسماعيل صدقى أن يكون أكبرَ رجل مالىّ فى البلاد ، لا أريد مؤلفا ولا محاضرا ، وانما أريد رجُل عمل أنقذ بمهارته ميزانيـة الدولة مرّة وكان قد أشرف بها سلَفُه على الدمار . ومايزال يعالج بتلك العبقرية الفَـذَّة ميزانيةَ الدولة وزيرا وعضوا فى مجلس النواب .

وقد تطلّعت الآمال من بضعَ عشرةَ سنة الى وضع مشروع جامع لترقية شأن البلاد من الوجهتين : المـالية والاقتصادية ، وعُهِد بهذا الى (لجنة) من أهل الخَطَر فى هذه الأمور مصريين وأجانب ؛ وتولّى صدقى باشا رياستها فبحث فى كل مرافق البـلاد لم يَدَعْ دقيقة ولا جليـلة فى ذاك إلا حرَّرها ودلّ على مواضـع النقص فيها ، وكيف تُطلَب أسـباب الكمال لها ؛ وخرج بمشروع عظيم لو أن مصر وُفِّقت الى الأخذ به والسير بمرافقها على ما رُسم فيه لكان لثروتها المسكينةِ اليومَ شأنٌ آخر !

وهو من أَعلا المُثُل للكِفايات الواسِعة المَشبوبة التى لا تتحـرَّج بمطلَب ولا تتخَذل عن الغاية ؛ وأَنّى شارَك فى عمَل كان المُجَلِّى وكان أوّلُ نظرِه جماعَ الرأى

فى النهاية . ومما يؤثَر له أن المجلس الاقتصادى — ولا تنسَ أنه من بعض آثاره فى وزارة المالية — انتخبه رئيسا للجنة الفرعية التى عُهِد اليها وضع النظام الجمركى، فأعَدّ برنامجا بديعا اتخذته اللجنة دستورا لها وما زالت تترسَّم آثارَه إلى الآن .

ومما يُحصَى له ، إن كانت تُحصَى مفاخر آثاره ، تلك المحاضرة الرائعة التى ألقاها فى العام الماضى على محامى المحكمة المختلطة فى موضُوع الامتيازات الأجنبية وعلاقتها بالضرائب . وما كان أعظمَ انتصاره إذ يَضرب تلك الامتيازاتِ فى أمنع قلاعها، ثم يتدلَّى عن المِنبَرِ بين تهليل صَفوَة «الأجانب» وهُتافهم الطويل !

* * *

وأحرز صدقى باشا إجازة الحقوق من مدرسة الحقوق المصرية وسنُّه لم تَتَشَرَّف بعدُ على الثامنة عشرة، وخرج الى مراكز النيابة فلم يَظهر له فيها كبير خَطَر، وأىّ خطرٍ كبير يمكن أن يتهيأ لعضو نيابة محدودِ السعى محدودِ العمل؟ ولكنه ما كاد يُولَّى سكرتيرية المجلس البلدى فى الاسكندرية حتى ظهر نبوغه وظهرت معه تلك الجرأةُ النادرة . ويقبِض رجل مصرى لأوّل مرة على ناصية المجلس البلدى فيضبط إدارتَه ويعمَل على أن يطهِّره من أدرانه تطهيرا .

ثم جِىءَ به سكرتيرا عاما لوزارة الداخلية فوكيلا لها، فكان له شأنٌ أكبر من شأن « موظف » مصرى فى ذلك الزمان . وأنَّى صار صدقى باشا فى مناصبه صارت معه الدقة والفِطنة الى خفايا الأمور والاضطِلاع من مهامّ الحكم بكل عظيم .

وتولّى الوزارةَ فلم يُطل به الحظُّ فيها فاعتزلها ولبث فى داره بضعَ سنين، الى أن أُلّفَ الوفد فى أعقاب سنة ١٩١٨ ليتحدّث على قضية مصر فانتظم فيه صدقى باشا. وكان رابعَ أربعة من رجالاته امتدّت اليهم يدُ السلطة العسكرية فنفتهم عن البلاد الى جزيرة مالطة، حتى اذا أُطلقوا بعد تلك الأحداث الجُلّى، انطلقوا من فَوْرهم الى باريسَ حيث وافاهم سائرُ أعضاء الوفد، وهناك جعلوا يرفعون صوت مصر ويطرقون بطَلِبَتها كل باب، ويسعَوْن الى استقلالها ما وجدوا الى السعى سبيلا. واذا كانوا رفعوا صوتَ مصر فلقد رفعوا كذلك رأسَ مصر، واذا كانوا دوّنوا فى إثبات حقّها صحائفَ خالدةً على التاريخ، فان اسم اسماعيل صدقى سيظَلّ فى أجلّ هذه الصحائف خالدا على التاريخ.

وفشت، مع الاسف، فاشيةٌ انقبض على أَثَرها صدقى باشا عن العمل، وصدَر أَدْراجَه الى مصر، وبقى فى عُزلته حتى كانت الوزارةُ العدلية فى أوائل سنة ١٩٢١ فتقلّد فيها وزارةَ المالية، وشَخَص فى الوفد الرسمى الى لندن فى تلك السنة. واذا كان قد شارك فى بحث المسألة السياسية فقد انفرد ببحث المسائل الاقتصادية التى تعلّقت بها المفاوضات، فكان فيما حرره منها حقّ لَبِق وحقّ خبير.

وتعلَم أن ثروت باشا قد استخرج فى سنة ١٩٢٢ تصريح ٢٨ فبراير وإعلان مصر دولةً مستقلةً ذات سيادة، فلا تنس أن صاحبه صدقى باشا كان وَزَرَه فى هذا السعى وعونه بما جلَّ من التفاصيل. وما أبدع صدقى يكمّل ثروت اذا عَرَضتْ عظيماتُ الأمور، هذا لخطْبِ السياسة الضخْم، وذاك لما يتكئ عليه حلُّ المعضلات من دقائق الموضوعات.

فكيف بهذين مع عدلى بعينه العالية ونظره السياسى القدير ؟ وكيف بلائتهم مع الزعيم الجليل سعد باشا وما اختصه الله به من شدة نفس وقوة حجة وصلابة عود ؟ .

ولقد حق للأمم الناهضة بهذا أن تغبط مصر ، وإن مصر ببركة هذا الائتلاف المقدس لبالغةٌ غرضها الأسمى إن شاء الله .

و بعدُ فلقد لبثت مصرُ بضع سنين وعيشُها السياسى قائم على تنابذ قادتها وتناحر أحزابها ، كلٌّ يعمل للقضاء على غيره حتى إذا خلا له وجهُ الأمر تولى حلَّ قضية البلاد على ما قدَّره هو لتحقيق أمانى البلاد . ويستحِرّ القتال ويرمى كلٌّ عدوه بما ملكت يده من أسباب الهلاك . ويأبى حارس الكنانة الا أن يُبصِّر الصَّفوة من القادة وأعيان أهل الرأى بأنه اذا كان هناك من يستفيد بهذه السياسة الدامية فليست هى مصر على أىّ حال !

وما إن أهابَ بالقوم ذلك الداعى النصيحُ حتى أُلقِيَ السلاح ونُضيت الدروع ، وخشعت القلوب وفاضت العيون بالدموع ، ومشى الأخُ الى أخيه يستعتبه فيُعتِب ، وهُرِع الولد الى أبيه يستعطفه فيعطِف ويحدِب ، وتُبزَل الأضغان وتسلُّ الأحقاد ، فيجتمع الأحبابُ من كل ناد ، فلا ترى الا عطفا يملأ الأفئدة ورحمةً تسيل بها الأكباد .

شواجرُ أرماح تقصَّفُ بينها شواجرُ أرحامٍ ملومٍ قطيعُها
اذا احترَبتْ يوما ففاضت دماؤها تذكرت القُربَى ففاضت دموعُها

وكذلك أصبحت البلاد بنعمة الله صفا واحدا يرمى فى غرض واحد بعد أن كانت صفوفا يرمى بعضُها بعضًا . وصدقى باشا رجل شديدٌ فى رأيه يعمل

له بكل ما أوتىَ من قوة ، وهو من أكبر العاملين على ترك سياسة الفُرقة الى سياسة الوئام ، وصلَ الله فى عمرها الى غاية الزمان ، فكان شديدا فى الأولى كما كان شديدا فى الثانية، ومن يُنكر عليه هذا فهو لا يَدين بمنافع البلاد حيث كانت، ولكن يَدين بعبادة الأشخاص حيث تكون ! .

وهل كان هـذا فى شرع السياسة بِدعا ؟ وهذه دولُ الغرب التى نأخذ عنها أساليبَ الحكْم ونتروَّى وجوهَ التصرف فى السياسة، لقد تتعادَى أحزابها وتتفانى، وينضَح بعضها بعضا بالمكروه، حتى اذا حدثَت الأحداث تصافحت الأيدى، واتحدت الكلمة وتلاحَمَت الصفوف، ودخل رجالٌ من بعضها فى وزارة يُنْمَى رئيسها لآخرين، والأمثلةُ على هذا أوفر من أن يتناولَهَا البيان .

ولقد كان سعد وعدلى وثروت وصدقى من بَحْرِ النهضة حزبا واحدا يدينون برأى واحد، ويَسعوْن لغرض واحد ، فهل يُعدّ عليهم اليومَ أن تحسِر الفتنة بينهم وأن يعودوا كما بدءوا قلبا واحدا، وقد جدّت الأحداث، لإنقاذ حياة البلاد ؟!!!

* * *

ولعل صدقى باشا يمتاز عن أصحابه بشدّة العصبية لأهله ومعشره فلا يفتأ بتفقّدهم ويَتوافَى لهمْ ويَصِلهم بكل ما دخل فى ذَرْعه، ولقد يُفْرط فى هـذا الى الحد الذى يبعَث ضِعاف الأحلام، على إنكار ما أوصت به المكارم من صِلَة الأرحام !

وصدقى باشا، فى بابه، عُدّة قوية للبلاد، وهو لا يكلّ من العمل، على فرط ذكائه، ولا يَمَلّ . ومما تحدّث به عنه أعرف الناس به أنه حين كان

وزيرا للمالية لم يكن يُرهق كبار موظَّفيها بطول المراجَعة والاستخبار، بل كان يتكئ على فطنته واختباره وحدَهما فى مذاكرة ما يَدفعونه اليه من الأوراق .
ومما تحدّثوا به عنه فى هذا الباب أيضا أنه كان فى غاية اليوم تُحمَل الى داره خرائطُ ثلاثٌ أو أربع تُجِن كلَّ ما يجرى من الأعمالِ فى وزارة المالية ، فيُكبّ على دراستها من الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى فلا تدخل الساعةُ التاسعة الا وقدقتلها بحثا ومراجعة واستوىله فى كل منها الرأىُ النصيح .
وإنَّ خِطْئًا عظيما ألّا يُستخدم على الدوام للنفع العام، فاذا أخذه شانئوه بِهَنة فما كان هذا ليتنقَّص أقدار الرجال ، الا اذا تنقَّصت الكهوف أقدار الجبال، ولعلهم فى هذا أيضا كانوا مسرفين !

من صدقى باشا الى محرر المرآة

وقد تفضّل حضرة صاحب المعالى إسماعيل صدقى باشا فبعث الى محرّر « المرآة » بالكتاب الآتى :

عزيزى الاستاذ الفاضل

أشكر فضيلتكم كثيرا لمرآتكم الناصعة وإن كنتُ لا أُخفى عنكم أنى لم أتعرّف صورتى تماما خِلالَها، بل أخشَى أن تكونوا قد بالَغتُم فى تجميلها وتزيينها .

وأرجو قَبول تحياتى ،، المخلص

١٧ يناير سنة ٩٢٧ اسماعيل صدقى

(محرر المرآة) وليس لى يامولاىَ ما أقولُه فى هذا المَقام غير قول الشّاعر:

فلَو(صوَّرتُ) نفسَك لم (أزِدْها) * على مافيكَ من شَرف الطِّباع



بَصيرٌ بأَعقاب الأمور كأنَّما * تُخاطِبهُ من كل أَمرٍ عَواقِبُه

على الشمسى باشا

لم يكن علىّ الشمْسى من يوم نشأته مَنكورَ المحلّ، وأوّلُ عهدِ الجُمهور به يَوم كان فى سويسرا يطلبُ العلوم العالية، فكان طالبا مُجِـدًّا متفوّقا ، وكان الى جانب ذلك حركةً وطنية قويّةً تدعو لمصر المضطهَدَة وتطالب لها الحرية فى صميم بلاد الحرية . نعم كان الشمسى فى أوروبا أقوى صَـدًى لصوت الحزب الوطنىّ فى مصر. وأتمّ تحصيلَ علومه ونال عُلْيا الشهادات من أكبر جامعات سويسرا، وعاد الى بلاده فظَن الناس أن «وظيفةً» تُمهَّد فى الحكومة لهذا القادم الناجح الجـديد، ناذا به يعدِل الى دار الحزب الوطنىّ وينتظِم من فَوْره عضوا فى مجلس إدارته . وهكذا كان الشمسى درسا بليغا فى التضحية خالصـةً لوجه الوطن ، من حيث علَّم من لم يكن يعلَم أن التلميـذ يتعلم فى مدارس مصر حتى اذا تاقت نفسُـه الى طلب العلم العـالى هاجر الى بلاد الغرب فلَبِث سنين طوالا بعيـدا عن أهله وأحبّ الناس الى قلبه ، وأنفق ما شـاء الله أن يُنفق من مال وعمر، وأدركه ما شاء طلبُ العلم من كدّ ذِهْن وإرهاق عصَب ، حتى اذا برَع وحاز أسمى الألقاب العلمية ، عاد الى بلاده لا ليطلبَ بهذا كله عنـد الحكومة مُرتَزَقا ، ولكن ليطلب به « وظيفـةَ » جُندىّ مجاهد فى سبيل الوطن !

وكان على الشمسى فى الحزب الوطنى قوّةً كبيرةً لا فى جَهَارَة الصوت، ولا فى كثرة التّرائى للجماهير، ولا فى سبب من أسباب الظهور، ولكنْ فى صحة

الرأى وبُعد النظر وسلامة التدبير. حتى اذا بعثتْه ضرورةُ الحال للخَطابة أسمع الناسَ كلامَ وطنى شـديد الوطنية فى عبارات سياسى محَّصه العـلم ومرَّسته تجارِب الأيام .

وهنا يحلُو لى أن أقرّر ملاحظةً صغيرة : تلك أنه لم يكَد يخرج رجلٌ فينا الى مَيْدان السياسة إلّا جاز اليه بالحزب الوطنى والتشيّع بادئَ الرأى لمبادئه . والوجهُ فى هذا، على تقديرى، أن الحزب الوطنى حزبُ الشباب حقًّا، وأن مبادئَه مبادئُ الشباب حقا .

والشبابُ كلُّه حَدٌّ[1] وقوة : دمٌ فائر، وطَبعٌ ثائر، وخَيَـالٌ طائر، وأملٌ لا يَتَحسَّب للصِّعاب، ولا يتخَذل عن الاستِشْراف للغاية مهما عَزَّ الطِّلاب[2]:

اذا همَّ ألقَى بينَ عينيه عَزْمَه * ونَكَّبَ عن ذكْر العَواقبِ جانبًا !

وكلما عَلَت السِّن عَدَا العقلُ على الخَيَال، وقصَّت التجاريبُ من خَوَافى الآمال، وطَالَ النظَر وكثُر الحِساب، وتحـيَّر الرأىُ فيما على طريق الغاية من عَوَاثِيرَ وما فيها من عقاب[3] ــ الى ما تُثلِّم السنُّ من القوة، وتُقلِّم من أظفار الفُتُوَّة، وتُعجِز من تلَحَقه عن التطلُّع الى الطَّفْرة، وتُطَامنُ من جِماح أمله طلبًا للسلامة من العَثْرة . فاحكم أنت بعد هذا : أكانت فَترةُ الشيوخ عن صِحَّة تدبير وصدق حِساب، أم عن تراخٍ فى المُنَّة وعجز عن الوِثاب ؟ !

وجاء الانتخابُ « للجمعية التشريعية » فظفِر على بك الشمسى بالعُضوية فيها عن مديرية الشرقية ، ولا أدرى أكان ظَفَره بذاك ، على شدّة التنافس

---

(١) الحَدّ : الحِدَّة . (٢) الطِّلاب : الطَّلَب . (٣) العِقَاب هُنا : جمع عَقَبة .

وقسوة الخصومة السياسية ، لإدراك الناخبين صدقَ وطنيته وما له من المواهب السامية ، أم لإنهم إنما أخرجوه للنيابة عنهم لحَسَبه وأَصَالة عِرقه وموضع بيته فى تلك البلاد ؟

على أنه ما كاد يتبوأ كرسيّه فى « الجمعية التشريعية » ، وكان أصغرَ أعضائها سِنًّا ، حتى انفَسَح له بين رجالاتها فى مكان الرأى والحكمة مكان خطير !

ودارت رَحَى الحرب العظمى ؛ وظهر للسُّلطة القوية أن على الشمسى (من غير المرغوب فيهم) فكَفُّوهُ عن العَودة الى بلاده ؛ ويلبَث فى ديار الغرب منفيا طِوَال زمن الحرب ، فاغتنم هو هذا النفىَ ليدعوَ فيه لمصر وليستزيد من فَضْل الوقت لطلب العلم فى أعظم جامعات الغرب .

وأراد الله وأُغمِد السَّيفُ ، وهتف هاتف السلام ، وأُذِن (للغضوب عليهم) فى العودة الى بلادهم ، فعاد على الشمسى لا ليستريح من ذلك النصَب الطويل ، ولكن ليستقبل فى قضيَّة بلاده ذلك الجهادَ الطويل .

وشخَص الوفد المصرى الى أوربا فسُرْعانَ ما اتصل به على الشمسى ، وظل يمدّه بجهوده ويصِله بصادق الدعوة فى مواطن الدعوة ، ثم انتظم فيه عضوا .

وبعد، فأنت أخبرُ بمساعيه للوفد المصرى وبخاصةٍ فى بلاد الغرب، مما أجْدَى عليه بقوّة ذكائه وعظيم اختباره ووثيق صِلاته برجال السياسة هناك اعظم الجدوَى .

*
* *

ولقد حدثتك فى أول هذا المقال أن على الشمسى لم يكن من يوم نشأته مَنكورَ المحلّ ؛ وإنما أردت بهذا عِلْم الناس بنشأته فى المجد والحسَب ، وثقتهم بما له من شدّة فطنة وواسع علم ؛ وإيمانهم بما أدرك من اختبار وتمرين فى السياسة وصِدق جِهاد فى الوَطن ؛ أمّا أنه يصلح لأن يكون وزيرا ، وفى وزارة المعارف ، يَضطلِع بتلك الادارة الواسعة ويعالج أضخم مشكلة تعترض حياة البلاد ، وهى مشكلة التعليم ، فذلك ما كان محلَّ نظر كبير ؛ إن لم أقل إنه كان موضِع خوف كبير ! حتى لقد سلَّم كثيرٌ من الناس الأمرَ لله فى هذا وللزعماء تسليما ! وحتى قال بعض الصادقين المخلصين حين رأوا إجماع الزعماء على تقليد على بك الشمسى وزارةَ المعارف «اللهم إيمانا كإيمانِ العجائز» ! ! !

وأوّل ما ظُنَّ به أنه سينبعث بهوَى السياسة وحدَها فى عمله الجديد ، فلا يرَى أثرًا إلا عفّاه ، ولا بناءً إلا هدمه ، ولا عملا لأسلافه إلا نقَضه ؛ ولكن على الشمسى لم يكن عِندَ رأى أحدٍ من أولئك المتعجّلين جميعا ! فقد ارتفع به عِلْمه عن أن يغيّر فى نُظُم التعليم لمجرّد الشهوة فى التغيير ؛ وارتفعت به وطنيته عن أن يُخضِب العِلم ليرضى السياسة ؛ وحين فارت فَورة بعض أعضاء مجلس النوّاب على ما صنع سلفُه أبت علَى علىّ الشمسى كرامتُه وكرامةُ العلم عليه أن يشايع بظَهْر الغيب ؛ بل لقد صارح القومَ بأنه لا يستطيع أن يحكم على عمل سلفه إلا بعد أن يُراجعَه ويُصيبَ فيه مكان الرأى ، فما كان منه خيرا أثبته وأقرّه ، وما كان شرا ردّه الى الخير ؛ وأسرع لِساعته فدَعا بالأفذاذ

من أقطاب العلماء وأهل البَصر فى هذا الموضوع ، وألَّف منهم (لجنة) برياسته لمراجعة نُظُم التعليم بجميع درجاته ووضْع الخُطَّة الحكيمة التى تُحقق فى العلم أمانىّ البلاد ؛ وها هى ذى تعمل جاهدة فى هذه السبيل فلا تنتقل من خُطوة الى خطوة إلا بعد البحث وتقليب النَّظر وطول المراجَعة ؛ حتى لا تُرسل خطوتها إلا الى الثابت المطمئن ، مستهدِية بالحكمة والاختبار وحاجة البلاد وطبيعة أهلها وما انتهى اليه رأىُ علماء التربية فى نُظُم التعليم . و إنا لنرجو الله تعالى أن يوفِّق هذه (اللجنة) فى مهمتها حتى تبلغ غايتها ، وبهذا ندعو لعلى باشا الشمسى بتسجيل أبلغ فخر أثبتَه التاريخ لوزير المعارف فى مصر .

*
* *

وعلى باشا الشمسى رجُلٌ جمّ الأدب وافر التهذيب : يُروَى عنه أنه لا يَلقَ أصغرَ عمَّاله إلا باللطف والهَشاشة ؛ على أنه مع هذا شديدُ الحزم لا تأخذه هَوَادة فى موطن الحق . يغار على عمله غَيرتَه على أوثَق أسبابه ؛ فلا يدَع صغيرة ولا كبيرة من أعمال وزارته إلا سلَّط عليها ذكاءَه وقلَّبها على كل نواحى الرأى ، فان اجتمع فيها وجهُ المصلحة الخالصة أمضاها وأجازها ؛ وإلا فلا ثَمّ هوَى النفس وهوَى « الرجاء » الثَّكَل .

وليت حكامنا جميعًا يصلبُون على تقبُّل الشفاعات فى غير مواطن الحق ، فان الإفراط فى الرجاء أصبَح من أعضل أدْوائنا الاجتماعية .

وإذا كان الحاكم عَدْلا صادقَ الولاية على عَمله فليس هناك معنى (للرجاء) عندَه إلا أن يُراد به العدول الى الظلم وتعمُّد الخلاف للقانون ! أرأيتَ مثلَ

هـذا إسفافًا فى الطِّباع وفُسولةً فى الأخلاق؟ ! ... والعجَب أنه مع وضوح هـذا كلّه لجماعة المضطرِبين بفُنون الشفاعات عند الحكام فان أكثرَهم ليُطْلِقونَ ألسنَتهم بمقالة السوء فيمن يعتَصِم بالحق ولا ينحرِف، طوعا لشفاعاتهم، عن حكم القانون . وبهـذا أصبح لا يستحق الحمـدَ، فى شَرع هؤلاء، إلا ظالمٌ متمرّد على النظام ! .

وقال لى صـديق من القُضاة يوما وهو جَزِعٌ ثائر النفس : لا يغيظنى يافلان قَدر أن يجيئنى الشفيع فى احدى القضايا فلا يَفتح عليه الاجرام إلا بأن يرجونى "أن أقضى فيها بالعدل" ! ومعنى هـذا أننى لا أحكم فى أقضية سائر الناس إلا بالظلم ! ولو سألنى أن أَقضى فى شأن صاحبه بالظلم لكان ذلك أرفقَ بى وأدَلّ على أننى اذا أُرسِلت على طبعى لما عدَوْتُ مكانَ الحق ! ...

أقول، لو صَلب الحكام جميعًا على تقبـل الرجاء لما استكْفَوا الأذى فقط بل لطبعوا، على الأيام، كثرةَ الناس على حب الحق واجلال القانون ؛ وما أحوجَ بلادَنا فى نهضتها الكريمة الى أن يتغلغل فى القلوب حب الحـق واجلال القانون .

ونعود الى على باشا الشمسى فنقول إنه أظهر فى هـذه الفَترة التى قَبَض فيها على زمام وزارة المعارف كلَّ مواهب الوزير العظيم القوىّ الذهن، النافذ الرأى، الواثق بالنفس، والذى لا يجعل كلمتَه فى أسباب الحكم رَهنا بمنِصبه، بل يجعل منِصبه رَهنًا بكلمته .

وليس لتعليم على الشمسى فضلٌ كبير فى الحِرص على كلمته ؛ بل إن أعظم الفضـل فى ذلك لحُكـم الوراثة ، فقد قال أبوه أمين باشا الشمسى أغنى

تجار القطن من قبلُ كلمةً ؛ وكان له أن يتحلّل منها فلم يفعل، وخسر فيها مئات آلاف الجنيهات . وهكذا اذا كان فى نُبل الكلمة خَسارة فى المنصب أو المال، فهى كل الربح يُحصيه التاريخ لعظماء الرجال .



وعلى باشا الشمسى شابٌّ متين الجسم مفتول العَضَل ، أدنَى الى القِصَر منه الى الطول، أبيض اللون، أزرق العينين؛ تسترعِى نظرَك منه تلك الجَبهةُ الواضحةُ العريضةُ التى تُمثّل لك قاعدةَ مثلّث ينتهى بأسفل ذقنه، وما إن راقك منه أدبه وشدّة وداعته فاطّلعت منه على تلك الجبهة الهائلة إلا أحسَسْت أنه رجل خُلِق للكِفاح والنّضال .

وحدّثتُك أنه مفتول العضَل ؛ ذلك بأنه (Sport) حقا فهو يُجيد السباحة وركوب الخيل والملاعَبَة (بالشيش) ولا ينطوى عليه يوم إلا فَرَض منه قِسطا للألعاب الرياضية .

واذا كان فى المصريين قوم قد أَسِفوا أوّلَ الأمر على تقليد على الشمسى وزارةَ المعارف فان هؤلاء اليومَ أشدُّ الناس أسَفا على أن الوزارة قد حُرِمَت هذه العبقريةَ من زمان طويل .



الحمد لله ! لم يبقَ إلّا مائة ألف جنيه و ٥٠٠٠ سهم بنك عقارى قديم
حتى أنقطع الى عبادة الله والزُّهد فى الدنيا ! ...

الشيخ أبو الفضل الجيزاوى

ألّا من شاء أن يَقْـدُر مبلغ التطوّر الذى دخل على رجال الدين عنـدنا ويَعـرِف مدى الطُّفْرة العظيمة التى طَفَروها فى سـبيل الحضارة (والرقى) ! فليسمع القصةَ الآتية :

حدّثنى الثقة الصادق أنه كان فى الأزهر من ستين أو سبعين سـنة عالمٌ جليل المقدار يدعى الشيخَ الإسماعيلىّ، وكان يسكُن جامع المؤيد، وله تلميذ خاص، على عادة كبار العلماء فى ذلك الزمان، يقرأ بين يديه دَرسَـه اذا أقبل على حَلْقته، ويتلوه عليه اذا خلا لمذاكرته، ويُعينه اذا سَعَى، ويصبّ له ماء وَضُوئه ، ويحمل نعـله اذا دخل المسجد الخ . وهذا التلميذ كان يدعى الشيخ حَسَنا ... ...

وكان الشـيخ الإسماعيلىّ رجلا شديد الزُّهد فى الدنيا قوىّ الرغبة عنها ، لا يتعلّق منها بسبب إلا ما كان من شأن دينه وتعليم طلبته، وكانت وظيفتُه كلَّ يوم بضعة رُغْفان يتبلّغ بها وتلميذُه، وفى كل شهر ثلاثين قرشا يأْتدِم بها وصاحبُه، ويتجمل بما فَضَل منها لسائر حاجاتهما . ويدعو أحدُ التجار ذلك الشيخَ ليتغدى عنده ٱلتماسا لبركته فيأبى الشيخ ويعتذر، ويُلحّ الرجل فى الدعوة فيُلحّ الشيخ فى إبائه واعتذاره . فلما أَيِس الرجل من إسلاس الشيخ طلب وَجْهَ الحيلة فى الأمر فاختلى بالشيخ حسَن وقال له : اذا رُضْتَ لى نَفْس الشيخ

وقُدته الى دارى لِيُفطر عندى فى رمضانَ، وقد أصبحوا من رمضان على أيام، اجْتَعَلْتُ لك على هــذا نِحْيَيْن من السمن، وغِرارتين من القمح ، وأربعــةَ أعدال من الســكر والصابون والشَّمَع والبن . فجمَع الشيخ حَسَنٌ كلّ عزمه وانصبّ على شيخه يقبّل يديه ورجليه و يسأله ألا يخيّب رجاء داعيه، اذ الشيخ ما يزال فى نفوره و إبائه ، والشــيخ يلحّ فى الاعتــذار محتجًّا بأنه ما زال فى (خِزانته) خبزٌ كثير. ولمـا طال إلحاح التلميذ فَطَن الأستاذ الى أن فى الأمر شيئا فقال له : هل اجْتَعَل لك الرجُل على هذا جُعلا؟ فقال : بلى يا مولاى! لقد جعل لى كَيْتَ وكَيْتَ وأنا رجل، كما تعلم، ذو زوجة وأولاد، وإنى أرجو أن أعود بهذا على شَمْلى وأوسّع فى النفقة دهرا على عيالى؛ وحينئذ طابتْ نفسُ الشيخ الأكبر باجابة الدعوة رحمة بِعيال الشيخ الأصغر، وعيّن يوما من أيام رمضان لِيُفطر فيه عند ذلك التاجر. و يطير عنه الشيخ حسن اليه يبشره بقَبول الشيخ . و يحتفِل الرجل للأمر فيدعو بأجود الطُّهاة ويتقــدّم اليهم بِطَهْى أزكى الأطعمة ، كما يدعو لليوم المعيَّن أعيان التجار والسَّرَاة وكل ذى خطــر فى الحىّ لينْعَمُوا بطلعة الشيخ و يتشرّفوا بمؤاكلته . حتى اذا كان عصرُ ذلك اليوم لاحظ الشيخ حسن على أستاذه فتورا وإغضاء وتَرَبُّد وجه وانقِباضا عن الحديث، حتى اذا تهيأت الشمسُ للنزول قال لصاحبه : هلمّ بنا . وانطلقا يطلُبان حىّ الجمالية ، مَثْوَى الداعى، وما كادا يشرّفان على حارته حتى أبصرا علائم الزينة من بُنُود خافقة، وثريات آلِقــة ، ترتجف أثناء ذلك بَطَاطِيخ الزجاج فى ألوانها المختلفة، ورأيا كبار الأعيانـــ وهم ييمّمون دار الداعى على أُتُنهم

وبراذينهم الفارهة . فجمد الشيخ واصفرّ وجهه وتهدّلت شفته وأرعشت يداه وصاح فى تلميذه : كم اجتعل لك الرجل ياشيخ؟ فقال : جعل لى كيْتَ وكيْتَ! قال: فكم يبلغ ثمنها ؟ قال: يامولاى حولَ الاثنىْ عشر جنيها ! قال : فقسّطها علىَّ كل شهر ثلاثين قرشا ! ! ! ودار على محوره وجرى طلقا الى مثواه فى جامع المؤيد حيث يبسط خِوانه مما ادّخر من الخبز فى (خزانته) ! ! !

*
* *

وفينا اليومَ علماءُ كِبار، ولنا اليومَ شيخ إسلام جليل المقدار، لم يمنعهم علمُهم ، ولا دينهم ، ولا شدّةُ وَرَعِهم عن أن يفقهوا الدنيا ويجاروها فى مظاهر حضارتها ورقيها حتى لا يُطلِقوا فينا القالَة ولا يبعثوا الألسن بتنقّص الدين والقول بأنه يدعو الى الجُمود ومناهضة عوامل الرقىّ والتقدّم فى الدنيا الى حدّ أن يُحيُوا ليلة القدر المباركة فى (دار الوكالة الانجليزية فى شهر رمضان الماضى! ! !) ولو قد رأيتهم يهرولون فى (فروجياتهم) الى دار الوكالة الانجليزية إجابة لدعوة العميد وذكرت مرجعَ ذلك الشيخ الجامد وهَرَبه من تناول طعام لعله قد دخله ما لا يَحِلُّ — لعرفتَ حق العِرفان مبلغ التقدّم الذى بلغه رجال الدين عندنا فى مدى ستين أو سبعين من الأعوام ! ! .

ولو قد استَشْرَفَتْ لك ليلةُ القدر فكشَفَتْ لك عن (خزانة) الشيخ أبى الفضل الجيزاوى شيخ الاسلام لما وقعتْ عينك فيها على فقار من الخبز، بل لوقعتْ على الآلاف من (البنك نوت) الى أمثالها من أسهم الدّين الموحّد، وشركة السكر ، والرنت الفرنسى ، والقونسوليد الانجليزى ، وقناة بناما،

(وبا نصيب) بلدية باريس، الى وثائق الرهون، والغاروقات، والامتيازات العقارية، والاختصاصات، وأحكام نزع الملكيات، وان شئت إجمالا قلت إن (خزانة) شيخ إسلامنا، والحمد لله، لا تقل عن خزائن ثلاثة (بنوك) مجتمعات !!! .

وما لنا لا نغتبط بهذا ولا نُباهي به وقد كانت كلُّ (العمليات المالية) فى أيدى الافرنج واليهود والأرواح والأرمن، وها هى تى الآنَ تستخلصها من براثن أولئك الأقوام، أيدى سادتنا العلماء الأعلام .

* * *

والشيخ أبو الفضل الجيزاوى رجلٌ عِصامىٌّ حقا فقد خرج من بلدته الوَرّاق من أعمال مركز انبابه الى الأزهر، وجَدَّ فى طلب العلم وكَدَح فى ذلك كَدْحا عنيفا قام عنده مقام شدّة الذكاء وقوّة الاستعداد، وانتهى أمْرُه، لا أدرى بأيّة وسيلة ، الى المرحوم الشيخ العبّاسى المهدى الذى كرِه له لقبَه فدعاه (أبا الفضل) فذهب له هذا اللقبُ من ذلك اليوم . ولما استوى عالما مدرسا كان المرحوم العباسى يعتمد عليه فى بعض وسائل امتحان العالمية فى الأزهر . ورأى الشيخُ (أبو الفضل) أن (يعمَل لدنياه كأنه يعيش أبدًا كما يعمَل لآخرته كأنه يموت غدا) فحَرَص على جمع المال وجدّ فى تثميره من أيسر الوسائل، وكم واَسَى به عانيا ، وكم فَرّج به كُربة محتاج ؛ على أن الله تعالى، الذى لا يذهب العُرْف بينه وبين الناس، قد أنعم عليه وجازاه فيما أعطى أضعافا مضاعفة . وله فى هذه المكارم أحاديثُ مأثورة ، وصحفٌ لا تزال مقروءة منشورة !!! .

وظلّ الشيخ (الـمالى) مدرسا فى الأزهر معروفا بشدّة الاجتهاد والمُطاولَة فى الدرس ، وقوة الصبر على التفهّم وتصيُّد الشكوك ومدافعتها ، على عادة الأكثرين من علماء الأزهر فى عهده ، فكان درسُه من أحفل الدروس بطلَبة هذا النوع من التعليم .

وهو رجل معروف بحبّ القرآن وتلاوة القرآن ، فلم يتبطّر وهو عالم كبير ، ومالى شهير ، على أن يَلِيَ مَقْرأة السلطان الحنفى لِقاء ريالين فى كل شهر ، وعشرين رغيفا فى كل أسبوع ! .

ثم وَلِيَ مشيخةَ معهد الاسكندرية وظل فيها الى أن أَفضَت اليه مشيخة الاسلام فى سنة ١٩١٦ أو ١٩١٧ م ، وبلغ من حب الرجل للقرآن واحتفاله للقرآن ألّا يتنحى عن مَقْرَأة السلطان الحنفى وهو فى ذلك المنصِب الجليل ! ! !

ويأبى الله إلا أن يَفْسَح له فى الخير ويبسُطَ له فى الرزق ، فبعد أن كان مرتب شيخ الاسلام ستين جنيها فى الشهر أضحى ألفَيْ جنيه فى العام ، وبعد أن كان ثلاثين رغيفا فى اليوم أصبح ثلاثمِـائة ، الى ما أُضيف الى ذلك من وظائفَ عدّةٍ تجرى على مولانا الشيخ الأكبر فى كل شهر مكافأة على حُضور مجلس ادارة مدرسة القضاء الشرعى ، وأخرى لمدرسة دار العلوم ، وثالثة على حُضور مجلس الأوقاف الأعلى ، ورابعة لمجلس البلاط ، وخامسة وسادسة وسابعة وثامنة ، الى تلك الأوقاف الواسعة التى دخلتْ على مشيخة الأزهر والتى لا يَعلم حسابَها إلا الله تعالى . وما شاء الله كان ! ! ! .

والشيخ أبو الفضل الجيزاوى متوسِّطُ القامة بين الطول والقِصَر ، قصير العُنُق ، عريض الألواح ، متوافِر اللحم لولا أن رَهِلَ لحمه بحُكم التسعين ، أَخْيَف

العينين، خفيف شَعر العارضين، كَوْسَجُ اللحية، أرَتُّ اللسان؛ اذا تحدّث تمتم فلا تكاد تَستبين له إلا بالعناءِ قولا، وقد أصبح من المرض وتزاحمُ السنين أشبه بمومياء، حتى لو قد ٱسْتَدْرَجْتَه يوما الى دار الآثار ما استطعت أن تستخرِجه منها إلا بعد جدال وجُهْد فى الإثبات !!! ... وهو وإن تهدّم جسمه، وإن خَمَد ذهنه، مايزال فَتِيَّ الرغبة فى المنصِب . وإن الحفلة الرسمية لتُعقَد، وللشيخ كلُّ عذره فى التخلُّف عنها لمعالجة ماهو أشبه بالموت، ولكنه يأبى إلا أن يُحْمَل الى الحفل حملا إِدحاضا لمـا يتقوّل على صحته المتقولون !!!

وللشيخ مزيّته التى لاتُنكر، فهو شديد الحرص على إطاعة كل مايؤْمَر به ممن يَسْتَدْرِج الأمرَ منهم، إذ الرجل واسع العلم بأحكام الفقه وما تتغيَّر عليه فى كل حادث آراءُ الفقهاء، فلا يُعجزه أن يبْرِئ ذمته فى أىّ حادث بجواب، مهما ٱختلفت العلل وتنوعت الأسباب .

ومن طَرِيف مايُذكر لمولانا الشيخ فى هذا الصدد ويدل على عظيم تصرفه وحاضر حجتـه أن عالمـا يَمُتُّ لنشأت باشا بالصِّهْر، وقـد نال إجازة التدريس من الأزهر على أنه شافعى المذهب، وبعد سنين تقدّم الى الامتحان فى فقه أبى حنيفةَ توسُّلا الى تَقَلُّد منصِب القضاء الشرعى، فلما طُرِح اسمه على لجنة اختيار القضاة الشرعيين، ولم يكن لنشأت باشا فى ذلك اليوم شأن ولاخطر، عارض مولانا الأكبرُ فى تعيين ذلك الشيخ بحجة (أنه شافعىّ) ! . وتدُور الأيام ويَقْبِض نشأت باشا على كل السلطة فى الحكومة ، كما تعرف، فيُرَدّ اسم الشيخ صهرِه على اللجنة، ويتبارَى بعض الشيوخ من أعضائها فى تزكيته

وتبيين مزاياه ويؤمّن على شهادتهم فيه مولانا الأستاذ الأكبر هاتفا بهم : ولا تنسَوْا أنه مع كونه عالما حنفيا فهو يُجيد (قِمّة الشافعىّ) أيضا !!! .

والشيخ، على ما أفاء الله عليه من الثَّرَاء العريض والنعمة الواسعة، مازال يتّخذ دارا متواضعة فى زقاق ضيق خِلَاف مِيضَأَة الحنفى، على أنه طالما أتعب سماسرة البلد فى المساومة على ما يعرض للبيع من قصور الزمالك ، والجزيرة ، وقصر الدوبارة، (وجاردن ستى) فاذا جاءوه بالبيت وكان ثمنه عشرين ألفا طلبه بالخمسةَ عشرَ، واذا كان بخمسةَ عشرَ صمَّم على العشرة، وهكذا ما زال الشيخ جاهدا نفسه وجاهدا معه سماسرةَ البلد من عشر سنين مضت، فلا هو يشترى ولا يَقعُد عن التماس القصور ، على حدّ قول الشاعر : (فلا أَمَلٌ ولا تُوفِى المواعيدا)! وماله ولقصور الدنيا تلك التى تستفتح الخزائنَ وتستخرج الأموال وتُجَشِّم النفقات، وفى الجنة قصور من الزُّمُرُّد ومن اليواقيت ومما تقوم اللَّبِنة فيه من الفضة وأختها من الذهب وهى لا نفقة فيها؛ فالطيبات كلها وألوان التَّرَف تجرى على أصحابها من غير كلفة ولا عناء . ولمولانا الشيخ منها ، بعد العمر الطويل، ما لا يُحصَى جزاءَ الزهد فى الدنيا والرغبة عن قصورها ومتاعها (وهل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان) ؟ .

نسأل الله جل وعلا أن يَمُطَّ فى عمر الشيخ أبى الفضل فى الدنيا وأن يُسعد فى حاله ، ويَزيد فى ماله ؛ فلا تقوم بجانبه البنوك، ولا تجوز بغير توقيعه الصكوك ، وأن يخصّه بكل ما تجبيه الأوقاف والحوانيت والشركات والمصارف ، من أوّل الاسكندرية الى أقصى القَضَارِف . آمين .



لا يغُرّنّك سُهُولةُ المرتَقَى اذا كانَ المُنحَدَرُ وعْرا

عزيز عزت باشا

مظلومٌ من الطبيعة، ومظلومٌ من الحكومة، ومظلومٌ من الناس، ومظلومٌ من نفسِه . شاع فيــه المرض أو توهُّم المرض (أو ما تراه أعظُما وجُلودا ؟) فهو يخشَى الطعام لئلَّا يدركه البَشَم، ويخشى الشراب لئــلا يُلِحَّ عليه السَّقم، ويخشى المشيَ خــوف تعب القلب وخفَقَانه، والتلفّتَ اتقاء وجـع الجنب وضَرَبانه، والحــديثَ فانه يُرهِف العَصَب، والكتّابةَ فانهــا مَدْعاة للكدّ والنَّصَب . ولابد له من أن يَطْعَم ليعيش؛ فاذا قَرَّبوا اليه الطعام دفع صِحَاف اللحم أبيضه وأحمره؛ لأن أضراسه لا تقوى على قَضْمه، ومعدته لا تضطلع بهضمه، واذا جاءوه بالخضر صَدَف عن هذا ففيه حديد، وهذا لكثرة مايحوى من (الأسيد)، وهذا لأنه وشيك التحجُّر، وهذا لأنه سريع التخمّر، وهذا لأنه يستحيل فى الأمعاء غازا، وهذا لأنه لايجد فى (الاثنى عشرى) مجازا؛ ثم مدّ يده فى خوف ووهل[1] فتحيّف من احدى الصِّحاف قطعة من (البطاطس) مسلوقة مدقوقة، قد بالغوا فى عَرْكها، وألحّوا فى فركها، ولم يعالجوها بدُهن ولا مرق، حتى اذا أساغها بعد طول مضغ وهَرس، وترديد على كل ثنِيَّة وكل ضَرْس، مضى يطلب لهضمها من العقاقير كلَّ ماأخرج أطباء الانجليز والألمــان، والفرنسيين والأمريكان، مما يُدِرّ عصــير المِعَدة، ويحرِّك الأمعاء، ويشــدّ

(١) الوهل : الضعف .

المُصْران، ويقوى (الضَّفيرة الشمسية) ويمنع التخمر، ويشتفّ الغازات؛ ويحتاز (الحجاب الحاجز) فلا يضغط القلب؛ ثم راح يشكو هؤلاء جميعا!!!

وعزيز باشا عزت كبير الرأس، له وجه شاحب طويل على جسم رفيع طويل، لو وقف أمامَك ولم يتحرك لخلته عصى خيزُرانة رُكِّب عليها مِقبض من العاج!.

وقد نجَم من بيت حسب وغنى، وتعلم فى صدْر شبابه فى مدارس مصر، ثم شخَص الى انجلترا فتاق العلم فى مدارسها، ثم دخل فى جامعة (ولش) العسكرية حتى إذا طَوَى فيها سنين طالبا مُجِدًّا متفوّقا خرج منها ضابطا فى الجيش البريطانى، ثم استقال وعاد الى مصر فانتظم فى خدمة الحكومة المصرية حتى قُلِّد وكالةَ الخارجية، الى أن كانت وزارة محمد باشا سعيد الأولى فلم يرأن يبقى فى وزارة الخارجية وكيلا فنَزح بأهله الى لندن وأقام فيها كلَّ هذه السنين.

وهو رجل وافر الذكاء، غزير العلم، جَمُّ الأدب، صادق النُّبْل، وبهذه السجايا استطاع أن يُحرز فى بلاد الانجليز مكانا رفيعا.

ولما جاء دور اختيار السفراء قلّدته حكومة جلالة الملك فؤاد الأول سِفارةَ لندن، وكان اختيارا موفَّقا من ناحية ما للرجل من سَعَة العلم وصدق النبل ووفرة الغنى والمنزلة فى عظماء الانجليز، الا أن الرجل، مع الأسف، كما أسلفتُ عليك مريض. ولعل المرض هو الذى شَغَله عن متابعة الحركة المصرية ومُدارسَة قضيتها وتفهُّم ظواهرها وخوافيها، فلم يكن ذلك المِعوانَ الذى يتكئ عليه رجالُ السياسة فى معالجة القضيَّة المصرية كلما جدّت عظيمات الأمور.

وفى الحق أن عزت باشا فى خُطَبه البديعة الرائعة عن السودان إنما كان رجلا وطنيا أكثرَ منه رجلا سياسيا؛ فان مهِمّة السفير أن يخاطب الرجال الرسميين لا يتخطّاهم الى خِطاب الشعوب . ولعل ظرفنا الخاص هو الذى بعث حرارة عزت باشا وأطلقه فى الشعب الانجليزى بتلك الخُطَب السوابغ . وكثيرا ما يُغتفر فى أمثال تلك الرجّات القومية تجاوز مايدعونه بالتقاليد .

ولقد أخذوا عزيز باشا عزت بطول إجازاته وتركه مَثْوَى عمله الأشهرَ الطِّوالَ الى سويسرا للتداوى وتاراتٍ الى مصر . والرجل لم يكن متجنِّيا ولا متبطِّرا فانه وأهلَه كليهما مريض؛ وقد حدثتك أن الطبيعة ظلمته ، وأىّ ظلم أشنع من ظلم المرض ، وحدثتك أن الحكومة ظلمته اذ قلدته باديَ الرأى منصِبا لاتضطلع صحته بأعبائه ، وإنه ليقدّم اليها الاستقالة بعد الاستقالة وهى تأبى الا أن تردها اليه وأن تُمسكه فى مركزه رغم أنفه ، والناس له فى هذا كذلك ظالمون .

ويجمل فى هذا الموضوع أن نذكر أن الرجل لم يُدَلِّ يده الى تناول راتبه طول مدّة إجازاته فهو يردّها على خِزانة الحكومة ردًّا .

وأنت تعلم من مناقشات مجلسى البرلمان أنه لم يدخل فى شأنْ « بيوت هوس » بيدٍ ولا رِجل ، بل لقد أنكر هذه الصفقة أوّلَ الأمر وقضاها زيور باشا آخرَه فى سرٍّ منه اذ هو فى سويسرا .

وإن من الغَبن أن يقال ان عزيز باشا عزت (يشتغل) سفيرا لمصر فى لندن ، ولو سألتنى عن وظيفته الحقيقية لقلت لك إنه (يشتغل عيَّان) نسأل الله أن يُلقّيه العافية .

وبعد ، فاذا كان لنا سفير فى باريس وسفير فى روما وسفير فى الأستانة وحتى لنا سفير فى طَهران! أفلا يصح أن يكون لنا سفير أيضا فى لنــدن !؟ واذا كانت لنا صِلات ببلاد فارس ، ولفارس فى أسواقنا سجاجيد (وشيلان كشمير) وسبح (كهرمان) فانى أتخيل أن لانجلترا فى أســواقنا شيئا يُدعى الفحم، وآخر يُدعى الحديد، وثالثا يُدعى الأقمشة على اختلاف أنواعها، ورابعا وخامسا . . فاذا لم يكن بيننا وبين انجلترا مسائل سياسية تستدعى أن نبعث لها سفيرا، فلا أقل من أن نبعثه لمــا بيننا وبينها من وسائل تجارية !

واذا لم يكن فى مقدور حكومتنا أن تقبل من عزت باشا ما يقدّمه لها من الاستعفاء، فان فى مقدورها أن تعجل له الشفاء ! .



لا تَخَف فانى والله خفيف ! . . .

ابو نافـــع باشـــا
أو عمـــــدة سان اســـــتفانو

محمـد أبو نافع باشا شخصيَّة قوية يحق أن يتولَّاها الكتَّاب بالبحث والتحليل . على أنني اذا عجزت عن أن أجلوه تماما فى هـذه (المرآة) فلأنَّ تلك الشخصيةَ غريبةٌ فى بابها ، بل لعلها خرجت الى هذه الدنيا على غير سابق مثال . أما جسمه فيبدأ دقيقا من طرفيه كليهما ، ثم ما يزال يتدرَّج فى الغلظ من كلتا الناحيتين حتى يبلغ السِّمن منتهاه ، عند (خط استواه) . ثم هو أفوه ، غليظ الشفتين ، حديد العينين ، قصيـر العنق . اذا مشى حسبته هضبة تضطرب فى زلزال ، واذا جلس خلته تلعة فصلت عن أحد الأجبال .

عاقل راجح العقـل ، ذكيّ مشتعل الذكاء ، غنيّ وافر الثَّراء ؛ يجمع من ألوان العلم بتاريخ هـذا البلد وأحداثه وأحوال أسره ونفسيَّات رجالاته ما أحسب أنه لا يتَّسق لرجل غيره .

وهو عذب الرُّوح ، حلو الحديث ، بارع المجلس ، حاضر النكتة يرسلها فى موضعها فى توقُّر واحتشام . وقـد دُعِىَ ، بحقٍّ ، عمدةَ (سان استفانو) لأنه ما تكاد تلوح علائم الصيف حتى يشُدَّ الرِّحالَ الى الإسكندرية فيتخذ له دارا فى الرمل ؛ فاذا كان الصباحُ من كل يوم خرج الى (كازينو سان استفانو) فجلس مجلسَـه الى يسار الداخل ، وفى هـذا المجلس يحتشد الجمع الحافل من

الوزراء ، سابقين ولاحقين ، ومن مستشارِى الاستئناف ، ومن المديرين ، ومن كبار الموظَّفين ، ومن الأعيان ، ومن أهل العلم والأدب ، لأن أبا نافع باشا يدعو كلَّ من جَازَ به من أصحابه ويعزِم عليهم بكلّ عَزيمـة ، ويأبى إلا أن يُقرِّب اليهم (على حسابه) كلَّ ما يسألونه غِلمانَ الكازينو من ألوان الحلوَى والمياه المعدِنيـة وما الى ذلك ، ثم ينطلِق فى المجلس محاضرا مفاكهًا محبوكَ الحديث متَّزِن الكلام الى أن يَحين وقتُ الغَداء فينطلق (وحده) الى داره ، فاذا كان العصرُ عاد الى مجلسه وعاد اليه من ذكرتُ من صدور الناس ، فلا عجب اذا دُعِى أبو نافع باشا بعمدة سان استفانو ، ولا بِدعَ اذا دُعِى مجلسُه هنالك (بالمصطبة) .

وحدّثتك أن أبا نافع باشا شخصية غريبـة ، والواقع أنه قد حيَّرنى فيه ، فلم أعدْ أدرى أهو أكرم الناس أم هو أبخل الناس ؟ فلقد أرى نَفْسَه تَطيب بالإنفاق على كل من استراح الى مجلسه فى سان استفانو بالغا ذلك ما بلَغ ، حتى ليخيل الىّ أنى لو طلبت (على حسابه) كل يوم (Consommation) بمـائة جنيه لسخا بها فى هشاشـة ولُطف أداء ، على أنه طالمـا وعدنى بأن يدعونى فى داره الى حفلة عشاء يُسمِعنى فيها المرحومة ألمظ ، ومابرح يطاولنى فى هذا ويُنْظِرنى حتى ماتت ، فتحولنا بالعِدَة الى المرحومة الوَردانية فما برح يطاولنى ويُنْظرنى حتى قَضَت هى الأخرى الى رحمـة الله ، ثم انتقلنـا الى الشُّهْديَّة ، فعبد الحى حلمى ، ففلان ففلانة ممن طواهم الرَّدى وأتى الموت على آخرهم حتى وصلنا بالسلامة الى الآنسـة أم كُلثوم ، مدّ الله فى عمرها ، حتى يُحقِّق أبو نافع باشا وعده لى ويُحقق رجائى فيه ، ولا أظننى أدعو لأحد بالبركة

فى الحياة وطول العمر كما دَعَوت للآنسة أم كُلثوم بأن يحييَها الله تعالى حتى يدعوّنا لسماعها أبو نافع باشا ! كذلك تَجرى الأحداث فى البلد فيُهرَع المياسير وغير المياسير الى الاكتتاب بالأموال الجليلة والضئيلة ، ولكنك لا تسمع لأبى نافع باشا خبرا ، ولا ترى له فيهم أثرا ؛ على أنك ، فى بعض الأحيان ، تراه يَسخو بالآلاف ويَعِدُ صادقا بالآلاف وهو فى صمت وكراهة للإعلان !

وهو رجل غريب فى احتياطه وتحرّجه ؛ فلا تراه قطُّ يتهافت على شأن عام ؛ ولقد قامت الدنيا وقعدت وانصدَع البلد أحزابا وشِيَعا ، ثم كانت الانتخاباتُ يتقاتل الناس عليها ويتناحرون فيها ، وأبو نافع باشا جاثِمٌ مَجْثِمه لا يَحدُر اليها طرفا ولا يدا ... .

وإنك لتجلس اليه والخَطْب قائم فما يزال يستدرجك ويستخرجك حتى تستريح اليه بمكنون رأيك اذ هو متحفِّظ دونك ما تَتَفَصّد نفسُه من الرأى بكثير ولا قليل ! فاذا أنت عالجته على أن يُفضى اليك فى الحَدَث القائم بحقيقة رأيه ودخيلة اعتقاده ، راح يُرجّحك بفنون من القول يَطليها بأفاكيه العِذاب ، حتى يُخْتَم عليكما المجلس أو تأخُذا فى حديث غيره .

وإذا تهيَّأ لنا أن نلمح جانبا من هذه النفسية الغريبة وأن نُصوِّرها للقارئ كما لمحنا وكما يحتمل التعبير ، فالوجْه فى هذا أن الرجل إنما يَأخذ نفسَه بالاحتياط التام فى كل قول وفى كل عمل ، وإن أكثر الناس لَيَنزلِقون فى الأقوال وفى الأعمال حتى اذا بان لهم وجهُ الأذى فيما تورَّطوا فيه راحوا يطلُبون الخَلاص ويلتمسون لهذا كلَّ ما دخل فى ذَرْعهم من فنون الحِيَل .

أما أبو نافع باشا فقد طَبَع نفسه بادىَ الرأى على ألّا يتورَّط فى قول ولا عمل (وكفَى اللهُ المؤمنينَ القتال) !

وأبو نافع باشا وإن كان شيخا مُوفِياً على الهَرَم إلا أنه ما زال فَتِيَّ الرُّوح، فهو لا يستريح الى القعود فى الدار استراحةَ الشيوخ، ولا يرضى لِسِنّه ولمنزلته أن يبتذل بالجلوس على مُتون القَهَوات، فكيف يصنَع ليُرضِى شيخوخة سنّه وشبابَ رُوحه جميعا ؟

لعلّك تعرِف قهوة (سبلنددبار) وأنها تَقَع فى سُرّة العاصمة، وأنها مَجَاز كل غاد ورائح، ومُتَرَاءَى كل سانح وبارح، واذا كانت لا تتّسق لمجلس أبى نافع باشا فان قضاءَ الله المحفوفَ باللطف لَيَشُقُّ بجِوار (سبلنددبار) دكانا للخواجه (سوسيدى) الدخاخنى، فلماذا لايجلس فيها أبو نافع باشا فيكون له كلُّ حظ الجالسين الى القهوة وليس عليه شىء من تكاليفهم ؟! نعم ان أبا نافع باشا لا يُدخن ولكن هل هذا يمنعه من أن يبتغِى مجلسه فى دكان دخان؟ . ولقد كان يجلس فيها أبو نافع باشا وبإزائه المرحوم محمد الشريعى باشا من ناحية، ويجلس السِّباعى بك المصرى وبإزائه محمد بك حتاته من الناحية الأخرى، فكان أربعتهم أشبه بالأربعة السباع القائمة على حِفَافَىْ كبرى قصر النيل . ولقد طالما اشتهيتُ سجاير سوسيدى فصرفَنى عن محله هَيْبتى لأولئك الأربعة من سُكان الآجام .

وما كان أوسع صدر هذا الرجل وأبلغ تضحيته : فاثنان من هؤلاء لا يُدخنان قطّ، وهما أبو نافع باشا والسباعى بك المصرى؛ واثنان يدخنان؛

على أن أحدهما لا يُؤْثر إلا سجاير (جنا كليس)، فاذا انتهت سجايره رجا الخواجة سوسيدى أن يبعث بغلامه ليجىء له بعلبة سجاير من محل جنا كليس !!

ولا تنس ما للأربعة الأقطاب من التكاليف الكثيرة والمطالب الوفيرة، هذا يشتهى السمك البُربون، وهـذا يطلب (الملوخية) الجديدة، وهـذا يبحث عن سوّاق للأتوموبيل، وهذا يطلب (سمكريا) لإصلاح صَنابير الدار، وهـذا يطلب (فكّة) ورقة بخمسين جنيها، وليس يُجَشّم كلَّ هـذه الخِدَم إلا الخواجه سوسيدى المسكين !

ولعل كل عزاء الرجل عن هذا البلاء جميعه أن الله قيَّض لدكانه حُراسا أربعة فلا يستطيع اقتحامَها أشدّ سُرَّاق الليل ولا أبرع لصوص النهار، على أنه حين اقتُحِم دكانُه إحدى الليالى وسُرِق من خِزانته أربعة جنيهات قرر أن (يَخصِم) من مرتب الفُرسان الأربعة جلوسَ ثلاثة أيام لِيتُوها فى (ضرب بُلطة) على الرصيف حتى أذن الله وانقضى الأجل المحدود !

*
* *

والواقع أن أبا نافع باشا أخذ نَفْسَه بألّا يطّلع من صُوَر الحياة إلا على نواحيها المفرحة؛ وإنك لا تراه، مهما جدّ الجدّ وأَزَم الخطْب، إلا مَرِحًا طَروبا، ولا تراه يعرِض للأحداث العامة وغير العامة، مهما جلّ شأنها، إلا من ناحية ما يستشِفّ فيها من نكتة بارعة ورأى طريف. ولو كان يُغامِر كما يغامر سائر الناس لامتُحِن فى الحياة مِحْنتَهم ولأصاب من مُرِّها ما يُصيبون؛ ولكنه رجل فيلسوف، وإن فلسفته، على أى حال وجهْتَها، لَفلسفةٌ سعيدة !



وما الدَّهْرُ إلَّا من رُواةِ قَصَائدى * إذا قلتُ شِعراً أَصبحَ الدهرُ مُنْشِدَا

شـــــوقى

لو بعث الله الناسَ كلاما ما عدا أن يكون شوقى نفسُه قطعةً شعريةً جميلة نُظِمَت فى الحب والرحمة . دقيق الجِرم، لطيف الجِم، متناسق الأعضاء، مستدير الوجه، لا تزال عليه أثَارة من ملاحة الصِّبا وإن تكرَّشت بعض معارفه بقضاءِ ما فوقَ الخَمسين، اذا أقبل عليك يحدّثك مالت حدقتاه عنك الى ما على يمينك أو شِمالك أو ظلَّتا تضطربان بينهما حتى لتُحِسّ أنه يوجه على غيرك الحديث . ولقد ينقطع عن المجلس، وهو فيه، المرتين والثلاث، فلا يَسمع ولا يرى ما يدور بين يديه، فاذا كان على هذه الحال ورأيت رأسه يَخْتلج، وقد رَشَق ظُفر إبهامه بين ثَنِيَّتَيْه وراح يهمس بالتناغيم يسلُخها سلخا، فإياك أن تقتحم عليه شأنَه فأنه إنما يتلقّى وحىَ القريض .

وهو خفيف الروح، رفيق النفس، نبيل الخُلُق واللسان، ترى فيه غِبطة العصفور وترى فيه وداعة الحَمام . وهو، كما قلت لك، قطعةٌ من الحب والرحمة . واذا كان الحبُّ ضعفا، واذا كانت الرحمةُ ضعفا، فلا شك فى أن شوقى أضعفُ الخلقِ أجمعين . ولم أره يوما غاضبا ولا ممهِّدا سبيلا للقسوة الى قلبه أو يده أو لسانه، ذلك أن الله طَبَعه على أن يتناول بما فيه من الحب كُلَّ ما يجرى فى هذا العالَم من الخير، وأن يتناول بما فيه من الرحمة

كلَّ ما يجــرى فى هــذه الدنيا من أذًى وشر . ومن هنا تُدرك كيف يَشِيع ذِكْر السيد المسيح فى شعر شوقى ، وكيف يتغزَّل بأفتن الغزَل فى سجاياه العِذاب !

مفْرِط فى حب نفسه ، شديد الوَلَع بها ، مفْرِط فى حب بنيه شديد الولع بهم ؛ وإنه بعد ذلك لشديد الرِّقة للناس جميعا . أضعفه الحب وفَلَّ من عزمه فلا يستطيع أن يَشهد مَشهَدا مؤلما ، ولا يستطيع أن يسمَع قصة حزينة ، ولو قد عَرَض لسمعه أو لبصره شىء من هذا لولَّى منه فرارا ولَمُلِئَ منه رُعبا . وَلوع بنفسه هَيُوب من أن تَعتريَها الأيام بمكروه ، وذلك الوجهُ فيما ترى من دوام رضاه وارتياحه فلا تلقاه يوما شاكيا ولا بَرِمًا بالحياة مهما تكدَّر العيش وتنكَّر وجه الزمان ، فانه اذا أصابه الخير هَشَّ له وفرِح به ، وإن أصاب المكروه سببا من أسبابه أطار خياله كل مطير فراح يلتمس له فى الضير خيرا وفى المكروه نعمة ؛ ثم جاءك يحدِّثك بمنة الله عليه وعنايته به ، فهو رجلٌ يستخرج الرضا ويستكرِه سببَ الغِبطة على كل حال ! وإنه ليُسرف فى هــذا إسرافا شديدا لقد يصل بك أحيانا إلى العَجب من أمير الشعراء !

***

وبعــد فلكم عالجتُ القلم على أن يقول فى « شاعرية » شوقى فعصَى ، ولكم بعثتُه بالبيان عنها فتعذَّر وأبَى ، وإن ظُلما أن تريدنى « السياسة الأسبوعية » على هذا وأن تَقضِى به علىَّ اليومَ قضاءً لِزاما !

وليت البيان يُعار فأستعير بيان شوقى ليصف شعرَ شوقى ، فليس يتعلَّق بهذا إلا ذاك . وإنى لآخُذ فى شعر هذا الرجل فما يزال يشُفنى ويرفعنى حتى

أرانى استحلت رُوحا محضا يَطير بى عنـدَ السِّماك ، ويُحلِّق مُحلِّق الأملاك ، فاذا أتيت عليـه وعُدت الى نفسى فاذا أنا ما زلتُ جسـدا رابضا على هذه الأرض، واذا شعرُ شوقى ما يزال نُورا يترقرَق فى تلك السماء !

صائِد لا يُخطئ سهْمه، وإنه لَيُصيب أرفع المعانى من أوّل رَمْيَة ، وإنه ليترفَّع بك اليها أو يتنزّل بها اليك فتسـيغها فى غير عسر ولا عناء ، وان كنتَ حق شاعرٍ بأنه إنمـا جاءك بمـا يُجاوز تفكيرَك ويعلو على مدى تخييلك .

ولقـد ضَرَب فى كل قَصْـد ، وجال فى كل غرض ، فَبَرع وبذَّ وأتى بالطريف لا تُدرَك آثاره ، ولا يُلحَق غبـاره . ومن عجب الزمان أن يَخرُج شوقى فى هذا الزمان ! ولا أدرى كيف فرّ هذا الشاعر من شاطئ دِجلَة الى شاطئ النيل ، ولا كيف تسلَّل من جِيل أبى نُواس الى هذا الجيل ؟ !

ولقد عارض الفحولَ من متقدمى الشعراء فى أجل قصيدهم فما قصَّر عن مداهم ولا انخَذَل عن اللَّحاق بهم ، بل لقـد زاد عليهم من كل ما فَتَقَ العصرُ فى فنون المعانى يُرسلها فى الكلام الناصع فلا ينبو عنها الطبع العـربىّ ولا يجد لهـا عليه نُشوزا .

وشوقى هو شوقى من يوم شَدَن ومن يوم تحرَّك بالشعر لسانه ، آية من آيات البيان يُدَوِّى بها السهل والجبل، ولقد يكون التقدّم فى السن، والتبسُّط فى العـلم، وتجارِب الأيام، وطول التمريـن فى نظم الكلام ، قد بَسَطت فى أغراضه وبصَّرَته بكثير من مضارب القلم، الا أنها لم تَزد، وهيهات لهـا أن تزيد، فى « شاعريّته » كثيرا ولا قليلا، ذلك أن هذه العبقرياتِ انمـا

تُخلَق مع المرء خلقا فلا تُنال بكسب ولا تعليم ، فاذا كان لشيء من ذلك فضلٌ ففى مجرد الصَّقْل والتهذيب .

وليس بِدْعا فى سـنَّة الله أن ينَضِج طبعُ شوقى بكل هذا البيان العربى وهو فتى لا يتَّصـل من أبنـاء العرب ، من أمه وأبيه بسـبَب ، ولا كان محصوله من لغتهم وأشعارهم ومحاضراتهم ومظاهر بلاغاتهم بأوفرَ من محصول من نشَأَ فيهم من أهل البيان فوثب دونهـم وردَّ بيانَ بنى العباس عليهم — وإلّا فمن علَّم البـدر كيف يتألَّق ، ومن علَّم الغـدير كيف يترقرَق ، ومن علَّم السِّـحرَ الجفون ، ومن علَّم الغمامة كيف تسُحّ بالعارض الهَتُون ، ومن علَّم الوردة كيف تتنفَّس بالأَرَج ، ومن علم البُلبل كيف يتغنَّى بالرَّمَل والهَزَج ؟ أَلَا ذلك تقديرُ العزيز العليم !

وإن طبع شوقى ليجود بالشعر يُصيب به أعلى المعانى ما أحسبه يرتَصِد لهـا أو يعالجها بالمطاولة والتفكير، ولقد تراجِعه فى بعض شعره ودا يطلب به فيروح يتفهَّمُه معك بمجـاهدة الفكر وطول الشَّـد على العَصَب ، حتى اذا قُرَّ هذا الشعر واحتـدَّت فيه الأذهان خرج للناس فيه من وجوه المعانى ما يُحيِّر العقولَ ويذهب بالألباب . فإذا رأيتَ بعد هـذا شوقى ولم تستطع التوفيق بين مجلسه وحديثه فى الأسباب الدائرة بين الناس ، وبين شعره الذى يُنيف بك، كلما قرأتَه، على السِّماك، فاعلم أن هناك موهبةً أو ما يدعونه «عبقرية» ليس من الحتْم أن تتَّسِق دائمـا لسائر غرائز الإنسان !

وإذا رأيتَ أثر النعمة باديا على شعر شوقى فلا يتعاظمنَّك هذا ممن لاغاه إسماعيــل طفلا، ورباه توفيــق يافعا، وخرّجه عباس رجلا؛ وعاش عمرَه متقلّب الأعطاف فى التّرَف والنعيم .

وقيل يوما لابن الرومى : كيف يسبِقك هذا الغلام (عبد الله بن المعتزّ) اذا وَصَف، فلا تَلحَقه أنت ولا أضرابك من مشيخة الشعراء ؟ فقال : لأنه إذا تكلَّم فإنما يصِف آنيةَ بيته !

وشوقى لا يحفِل كثيرا بنسْج الكلام وتزوير اللفظ وتزويق الديبــاجة؛ فإن طبعَه قد انصرف أكثرُه الى المعانى حتى إنه ليُحمِّل اللفظ أحيانا ما يثُقله ويَبهَظه ويكد ذهنَ القارئ فى التماســه وتبيينه؛ بل إنه فى سبيل الوفاء بمـا قَصَد له من المعنى لَيأتى أحيانا بالغريب الشامِس من اللفظ لاتُدرِك معناه إلا بعد مراجعة وطول استخبار !

على أننى فى هــذه المرآة بسبيل تحليل نفس شوقى لا تحليل شعره ، فمن كان لم يَزَل فى حاجة الى التهدِّى لفاخر شعره وعيون قصائده ، وهى فوقَ أن يتناولهـا العدَد ، فليطلُب بعضها فى قصيدة صديقه شاعر النيل التى أعدها للحَفْل الكبير، فليسَ أقدرَ على الدلالة على فاخرِ شعْر شوقى من حافظ إبراهيم .

وقد يُسِفُّ شوقى كما كان يُسِف بَشَّار وأبو نُواس وأبو تمّـام والبُحترى والمتنبى والمَعَرّى ومن دخل فى خِلالِهم من جِلّة الشعراء ، ولا بد للطائر المُحلِّق أن يستريح هُنَيهَة بالإسفاف ؛ وإنك لو وازنت بينهم وبينهم فى نصاحة شعرهم وحَبْــك قريضهم وارتفاع معانيهــم ، وفى إسفافهــم ذاك وتزايُل

ألفاظهم وفُسُولة معانيهم لخَلتهم إنما يعتمدون هـذا اعتمادا استجماما بالعبث أو تجنيًا على ما أمكنهم الله من نواصى البيان !

وقلت لك إننى لست بسبيل تحليل شعر شوقى حتى أضرب على ما تقدّم به القولُ مختلفَ الأمثال .

وشوقى فنّان كل الفنّان، يَكْلَف بفنه ويُغرَم بآثاره غراما شديدا . وليس يُؤذيه شىء كما يُؤذيه أن تِترَه حقَّه وتَتَحَيَّف من قدر صنعته .

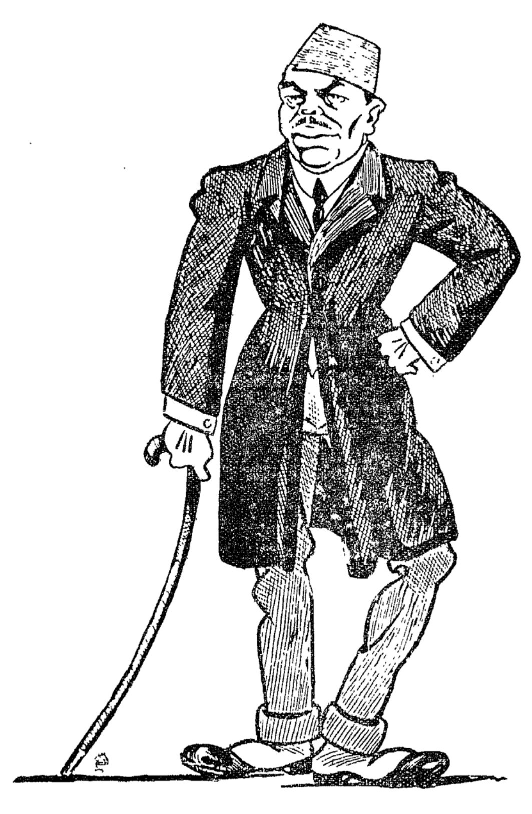
ولقد قلت لك إنه ضرب بالشعر فى كل قَصد، وجال به فى كل غرض فبذّ وبَرَع — استغفر الله الا الهجاء فما أُحصىَ عليه فيه بيت واحد ، اللهم الا أن يَتَنـدَّر ويُلاعب بالشعر لا يبلغ به الإقذاع ولا يتردّى به الى داعِر الكلام ؛ ولا أدرى أكان ذلك ترفعا من نُبْل النفس وكرم النّشأة ، والنّزاهة عن التدسُّس الى مكاره الناس ؟ أم أنه يرجع أيضا الى تلك الطبيعة الغرِيرَة والنفس الحُلوة؛ فهيهاتَ للعُصْفور أن يكون بازيا ، وللحَمَل الوادع أن يَستَحيل ذِئبا عاديا !

وللكُتّاب شعر تعرفه بجفافه وجَرَيانه فى مثـل أقيسة المنطق؛ وللشعراء نثر تعرفه بتزايُل لفظه وانقطاع جُمَله وعدم استرسال معانيه . اذا عرفت هذه القـاعدة تهيأ لك أن تعرف كيف يكون نثرُ أمير الشعراء ! . على انك واجدٌ لنثر شوقى حلاوة، برغم ما يقيِّـده من أسجاع الكُهّان؛ ولكنها حلاوة شـعر لا حلاوة كلام مرسَل، وكأنى به اذا اعتزم الكتابة فى بعض الأغراض نظمها أولا فى شعر مُقَفًّى موزون؛ ثم كسَّره تكسيرا وبذره على القرطاس بذرا .

ولِسان شوقى لا يفى بمطالب أدبه ولا خياله ؛ وإن فيه فوقَ هــذا لخجلا يُمسكه عن الكلام أحيانا فى مواطن الكلام، وقل أن تراه يتبسَّط فى حديث إلا إذا خلا الى نفَر من صفوة خُلَّانه ؛ على انك اذا شهِدت مجلســه ولم يُسَرَّ إليك أحد بأنه شوقى لمـا سَهُل عليك أن تُدرك أن هــذا شوقى الذى ملا طِباق الأرض بيانا !



وليس جديدا أنــ أُنبِّئــكَ بإن العبقرية كثيرا ما تَضْخُم فى المرء على حساب ما فيه من الغرائز ، وكأنى بها تملِك عنها قدرا من غِذائها حتى ما تَدَع لبعضها قواما . وتلك العلَّة، لا شــك ، فيما تراه وتسمعه من شــذوذ جميع العبقريين فى العالَم . فإذا كنت منكرا على شوقى شيئا من الشذوذ فإنك منكِرٌ، من حيث لا تريد ولا تجرؤُ ، تلك العبقريةَ الفحلةَ . وحسبه أن أصبح بها ملْءَ الأرض، وحسبُه أن أضحى بها حديثا للتاريخ طويلا .



وإنّيَ من قومٍ كأن نُفُوسَهُم * بها أَنَفٌ أن تسكُنَ اللحمَ والعظْمَا

محمد محمود باشا

تاريخٌ كبير فى سنّ صغيرةٍ ، وشأنٌ جليل ، فى جسم ضئيل . ولعل محمد باشا محمود لم يُذرِّف[1] بعدُ على الخامسة والأربعين ؛ ولكنك حين تقلّب الذهن فيه ينسرح منه الى مدًى عريض . وحسبك أن ترى أرنبة أنفه وهو يَشُدّها اذ يتحدّث اليك أو ترفعها له الطبيعة ، لتُدرك أنه رجل لا يريد إلا أن يكون عظيما ، أو على الصحيح ، أنه لم يُخلَق الا لعظيم . وكذلك كان محمد محمود من يوم أخرجه أبوه للتعليم فى مدارس الحكومة ، فكان فى السنة الأولى أوّلَ لِداته جميعا ، فلما تحوّل الى الثانية كان فوقَ أن يكون أوّلَ تلاميذها ، فوثب به الناظر الى السنة الرابعة طَفْرة . وجاء عاهل وزارة المعارف "دنلوب" ليطالعَ مدرسة أسيوط ويتشرّف على سَيْر التعليم فيها ، فلما انتهى الى تلاميذ السنة الرابعة رأى غلاما دقيقا لا تتصل سِنّه بأهل تلك السنة ، فبعثه من مجلسه وجعل يسأله وجعل محمدٌ يحسن الجواب فى غير تتعتع ولا ورَع حتى راع دنلوبَ شأنُه ، فسأل الناظرَ عنه فنفَض له جملةَ خبره ، فقطَع بدنلوب أن يُنقل تلميذٌ من السنة الثانية الى الرابعة طَفْرة ، فعجّل العقاب لذلك الناظر المسكين ! ولا أدرى أكانت فَعْلة دنلوب حرصا على النظام أم حرصا على ألّا تَفْسَح مدارس الحكومة طريقَ النبوغ لأهل النبوغ ؟ !

---

(١) لم يزد عليها .

ويَمضى محمد محمود فى سبيله الى المدارس الثانوية بعد إذ يُحرِز الشهادة الابتدائية، ولا يكون شأنه فى الأولى إلا كشأنه فى الثانية مجلّيا أبدا ، حتى اذا ختم علومها وأحرز (البكالوريا) متقـدّما مضَى الى انجلترا وانتظم طالبا فى جامعة (أكسفرد) وكان له فى جامعة أبناء الأعيان من الانجليز ما كان له هنـا : إكْباب على الدرس، وطاعة فى عزة نفس؛ ونُبل يُمليـه الحسَب ، وكرامة يزكّيها ما يُفضى له أبوه من مال ونَشَب . وكذلك عاش محمـد محمود مثلا أعلى للكرامة المصرية فى أعظم جامعات انجلترا بين أبناء أعظم أعيان الانجليز . وتأبَى عليه (أرنبة أنفه) كذلك إلا أن يكون بينهم مجلّيا فى انجلترا كما كان مجليا بين مَعْشره فى مصر، حتى أحرز أعلى الشهادات . وينقلب الى مصر قريرةً به عين شـيخ جليـل طالمـا صَـدَق فى خدمة مصر بلاؤه ، وتمحّض فى هواها إخلاصه و وفاؤه .

ودخل محمد فى خدمة الحكومة مفتّشا ، على ما أظن،فى وزارة المـالية، فسكرتيرا لمستشار الداخلية؛ وتَضيق هذه المساحة عن همته كما تضيق بمطامعه فى الحياة، فيغامر فى مَيْدان السياسة، و يغامر فيها بحزب قوىّ يجمع (أرباب المصالح الحقيقية) ورؤساءَ العشائر فى البلاد ، ويقوم « حزب الأمة » عَوانا بين الحزب الوطنى وحزب القَصْر فى تلك الأيام . وكان الشـيخُ الجليـلُ محمود باشا سليمان رئيسَ هذا الحزب، وكان الأستاذ الأكبر لطفى السيد عَلى تَرجُمانِه (الجريدةِ)، وتألفت إدارته من مشيخة من أهل الرأى والعلم والغنى والحسَب فى البلاد، وكان لمحمد محمود فيه، من وراءِ السِّتار ، رأىٌ كبير .

ويضطرب بعض الأمر على اللورد كرومر بشيوع الدعوة الوطنية واطراد قوتها واستفحالها يوما بعد يوم، فيختط له نهجا جديدا، ذلك بأن يستألف رؤساء العشائر و(أصحاب المصالح الحقيقية) ويقيم على المرافق العامة أهل الكفايات من أولادهم اصطناعا لهم من ناحية، واستصلاحا لأسباب الحكم من ناحية أخرى؛ فقد كاد الأمر كله يفسد باستخذاء[1] رجال الادارة لصغار المفتشين الانجليز واستنامتهم فى جميع الأمر لهم، اذ تشب فى الوقت نفسه حركة وطنية عنيفة تطالب بجلاء الانجليز جملة وتسليم مرافق البلاد لأهل الكفايات من أبناء البلاد؛ فأقام محمد محمود مديرا للفيوم وسرعان ماجمع بين احترام الانجليز ورضاء المصريين؛ وكان (لأرنبة أنفه) فضل عظيم فى مدافعة يد المفتش عن معالجة الأمور، الى قوة عزم، وحسن إدارة، وصلابة فى موطن الرأى. ولعلها كانت فى ذلك العصر، أول تجربة أجدت على الطرفين جميعا.

ثم عين محافظا للقنال، فمديرا للبحيرة يستقل بالأمر حيثما كان؛ (ويأنف) من أن يظهر على رأيه رأى انسان، ولو كان المفتش ولو كان المستشار، وتحرج من هذه الحال صدور وتضطغن على محمد باشا محمود قلوب، فيتربص به المكروه، حتى كانت حادثة فى البحيرة أرادوا أن يجاجلوا فيها المدير فما استطاعوا إلا أن يستقيل أو يقال من المنصب، وهو لم يزل بعد فى ميعة الصبا[2]، ضحية للاستقلال بالرأى، أو ضحية (أرنبة الأنف) لاتنزل على المهانة فى أى حال.

---

(١) الاستخذاء: شدة الخضوع والانقياد. (٢) أول الشباب.

ويَلبث حتى أعقاب سنة ١٩١٨ اذ تقِف رحى الحرب فيتقدّم فى أصحابه الغطاريف[(١)] للطالبة بحق مصر فى حريتها واستقلالها، ويُؤلفون الوفدَ المصرى ويُهيبون بالبلاد فتنهض فى آثارهم؛ فتقبِض السلطة القويّة عليه مع دولة رئيس الوفد واثنين من أعضائه وتنفيهم الى مالطة، فيَمضون اليها بارزى الصدور، مرفوعى الأنوف، هاتفين مِلءَ أشداقهم: ألَا فى سبيل مصر، فلتحيَ مصر! ثم كان من شأن الوفد وعظيم جهاده ما تعرِف؛ ولا محلّ لمعاودة القول فيه، إلا أن أُلِمع الى ما كان لمحمد باشا محمود فيه من كريم المنزلة بشدّة عقله، وصحة رأيه، وقوّة عصبيته فى كَبِد الصعيد .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نَدُلّ على سَعيه فى أمريكا إذ شَخَص عن الوفد لِبثّ الدعوة المصرية هناك، فتمّ له كلُّ ما أراد من الفوز والنجاح .

وهو من أوائل من استراحوا الى فكرة الائتلاف السعيدة إن لم يكن أولَهم جميعا، كما كان من أعظم العاملين على تحقيقها .

*
* *

واذا كان محمد باشا محمود مَدينا بماضيه الشريف القوىّ (لأَرنبة أنفه) فهو كذلك مدين لها بكل ما يحقِد عليه الناس . واسمح لى فى هذا المقام يا معالى الوزير أن أَضغَط على (أَرنبة أنفى) أنا الآخر فأرفعها بمقدار ٢ سنتيمتر حتى أستطيع أن أُصارِحك القول وأخاطبك خِطاب الأكْفاء للأكْفاء : إن خَلْقا من خَلق الله، وأنا مع الأسف منهم، شديدو المَوْجِدة عليك بما

(١) الغطاريف : السادة .

يَظنّون فيك من جَنَفٍ (١) وكِبْر وتهاوُن للنـاس . وانك لَتقتَضيهم أن يتـوافَوْا لدعوتك للشؤون العامّة بكل ما ملَكوا من رأى وجاه ومال ، حتى لو دعا الأمرُ الى ابتـذال المُهَج ، والتضحية بالأهل والولد ؛ إذ أنت لا تحتفـل لحاضر ، ولا تتفقّد غائبا ، ولا تعود مريضا ؛ ولا تشيّع جِنازةَ ميت ، ولا تأبه لأصحابك مهما كَرَثَهم من الأمر ونزل بهم من المكروه ؛ حتى فى الوقت الذى يَحتاج فيه الداعيةُ الى مصانَعَة جميع الناس ! !

وانى لأصارحك بهذا (ورزقى على الله) فان كنتَ آخذى على هذه المَعتبة بقطع (التليفون) عنّى فلا أحوجنى الله اليه ، أو مُجَازِىَّ بمنعى من السفر فى سكة الحديد فانى (أدقّ كَعْب) اذا لم تتهيأ لى الجِمال ولا البراذين ، أو معاقبى بعدم التخاطب بالبريد ، فليست كُتبى مما يسرّ القلب ، وتفضـل من اليوم بتحويلها اليك فلن ترى فيها إلا مطالبة (بذِمامات) متأخرة ، وتذكيرا بديون مُنْسَأة . وعلى كل حال (فالله يغنيها) عن وزارة المواصلات كلها .

والعجب أن محمد باشا محمود ، مع هذا التجنِّى كلّه على خلق الله ، رجل شـديد الأدب ، لطيف المحاضرة ، اذا أذن الله وكَشف لك عن ليـلة القدر فأصبتَه فى داره يجلِس مجلِسا للناس ! ولعل ذلك يفسِّر ما أقنعنى به رجلان فاضلان من أن محمد باشا محمود لا كِبر فيه ولا برم (٢) بالناس ، إنمـا هو المرض المِلحّ المتدارِك يَحْتازه عن كثير مما يرجو من مصانعة الناس وتفقُّدهم والتجمّل لهم . وانى لأقبل هـذا التعليل (تحت الحساب) . وأسأل الله أن يَمُنَّ على معالى الوزير بالعافية كلها ليَنعَم هو بها وينعَم بها الناس وينعَم الوطن .

---

(١) إعراض وتنحّ . (٢) البرم بالناس : الضجر منهم .



خلّدتُ «نهْضةَ مِصر» فلَّدنى تمثالُها

مختــار « التمثــال »

بَيْضة كبيرة ينتهى سِنها بلحية دقيقة مرسَلة على شكل مثلَّث متساوى الساقين . فاذا حُسر الطربوش أو القُبَّعة عن رأس « البيضة » رأيت غديرا فى صفاء المرآة وهدوئها ؛ يقوم على حِفافيْه نبت غزير، وتلك أيضـا رأسُ مختار المثـال . وهو كذلك من الرجال الذين تعرفهم بصَلْعَتهم إذا ولَّوا . وهو أبيض اللون، له تانك الحدقتان المتحيرتان فى عيون أكثر نوابغ العـالم . أما أنفــه فبائن الطول والانتفاخ فى غير كِبْر ولا تيــهٍ ، يتدلَّى على فم لولا غِلَظٌ فى شَفَتيه ما بان ولا انكشف . ثم هو بعــد هذه (الزحْمــة) منتظم الجسم متَّسق الجوارح، والحمد لله !

ومختار ضخْم الصــوت؛ فاذا ارتفع صــوته تسلَّخت بعضُ شُعَبه ، وإذا تحدّث، سواء بالعربية أو الفرنسية، سمعت لفظ مجاور متحذاِق فى «تطجينة» عامل من سكان الخارطة بجوار سيدى أبى السعود !

والعجَب أنه مع هذا كله رجل (Moderne) مطبوع فى تفكــيره ، وذوقه، وأناقته أيضا على آخر طراز . وهو ثائر عنيف الصَّولة على كل قديم؛ متعصّب شديد الهوى الى كل جديد . لا يَعبأ فى طلب هذا لنفســه ولقومه بعادة ولا بتقليد ، ولا بمــا هو أشد من العادة والتقليد . وهو اذ نضا عنــه الطربوش واتخــذ القُبَّعة لم يكن مُفتاتا على عيشــه الذى يكاد يكون أوربيا

خالصا، ومن العَجَب أيضا أنك تراه مع ذلك يستريح الى الحياة (البـلدية) كلما تهيّأت له، فيأ كل بكل كَفّه، ويُعلّق أسنانه فلا يتعبها بمضغ ولا قَضم، فاذا اتصل الحديث فى المجلس بألوان المنادرات والمفا كهات سمعتَ من مختار المطربَ والمعجبَ من كل نادرة طريفة، (ونكتة) رائعـة، حتى ليخيل لك أن سِـنّه تكنز ستين سنة، قضى نهارَها فى « التربيعـة » وليلَها فى غِشْيان الأعراس «الوطنيـة» وحضور مجالس «الشـعراء» على حواشى القهوات «البلدية» واستماع ما يتطارح به جماعات المتظرّفين من فنون النكات !

وهو صافى النفس، عظيم الشجاعة، وافر الذكاء، لا يَعنيه شىء فى الدنيا قَدرَ عنايته بفنه الجليل .

وفى الحق أن مختارا مجموعة (Assortimant) تضُم ألوانا من الغـرائب والمتناقضات. ولعل ذلك هو الذى هيأ له كلّ هذا النبوغ العظيم. وإن مَثّالا — يتروّى فنّه فى بلاد الغرب عن أ كبر رجاله، ويظَلّ السنينَ الطِّوَال فى ملابستهم ومحا كاتهم والتفطُّن الى مداخل صنعتهم حتى يَحـذِقه ويبرَع فيـه ثم ينقلب الى بلاده فاذا هو بصير بكل عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومحاضراتهم وماجلّ ودقّ من شؤونهم على تفـرُّق طوائفهم واختلاف بيئاتهم — لهو جدير بأن يكونَ فى فنه الحُسَان كلَّ الحُسَان .

*
* *

وقد نجَم مختار من أسرة كريمـة، فلما يفَع أخرجتْـه، على العادة، للتعليم فى المدارس الابتدائية، فمضي فى درسه غيرَ وانٍ ولا متخلّف، على أنه لم يكد

يَطوِى فى الطلب بضعَ سنين حتى بدأ ميله واضحا للرّسم والتصوير، فلا يُرَى مُكِبّا على درس إكبابه عليه فى « حصة » الرسم، ولا يكاد يُرَى هو نقشا باديا أو صورة معلقـة إلّا وقف يتصفّح ويتأمل ويُشيِـع كلّ حِسه فى تقاسيمها ومتخالف خطوطها وتعاريجها ، ثم اسـتلّ ريشته وأدوات رسمـه الصغيرة وراح يَحكيها بكل ما تهيأ للمَوْهِبة الناشئة فى ذلك الجِرم الصغير! وظل كذلك عدّة سنين لا يعدو منه الاجتهاد فى طلب العلم على الاجتهاد فى تربيـة تلك الملَـكة ما استطاع اليها السبيل .

وكانت مدرسةُ الفنون الجميلة التى أنشأها سمو الأمير البار يوسف كمال ، فنزعت اليها نفسُ مختـار ، ولعله لقىَ من أهله فى دخولها عنَتا ؛ وكيف لا تعنَت الأسر الطيبة، فى مثل تلك الأيام، اذا رأت ولدها يَميل عن طريق الحقوق أو الطب أو الهندسة الى طريق لا تنتهى بسالكها إلا أن يكون (مصوّراتى) أو حفارا أو نقاشا ؟ ! ...

وعلى كل حال فقد تمّ لمحمود مختار ما أراد من دخول مدرسـة الفنون الجميلة، أو بعبارة أحكم، لقد تمّ ما أراد الله لمصر من أن ترى نابغة من أبنائها يخلّد نهضَتها على تطاول الأعصار !

وفى هذه المدرسة جعلت موهبةُ مختار تتجلّى، وجعل أساتيذه يخصّونه بعنايتهم لمـا أنِسوا فيه من مخايل تدل على مسـتقبل عظيم، وبقىَ هو، طول مدّة الطلب، مجليا لا يُلحق : إكبابا على الدرس، واجتهادا فى التمريـن ، وتوافِيا لكل دقيق من ملاحظات الأساتيذ ؛ حتى اذا برَع بقدر ما يُمكن أن

يبرَع طالبٌ فى مدرسة الفنون الجميلة فى مصر رأى أن ظمَأه للفن لا ينقَعه إلا أن يغترفه من أصفى ينابيعه، فشخَص من فَوره الى باريس وانتظم فى أعظم معاهدها، أشخصه اليها كذلك سمو الأمير يوسف كمال؛ وظلّ يتعلم على أكبر أساتيذها عشر سنين متواليات ما أحسبه انحدَر فى خلالها الى مصر مرة واحدة ، واجتمعت شهادة أقطاب الفن هنـاك على أن هـذا الفتى «المصرىّ» ولا فخر ينبغى أن يُكتبَ فى جريدة كبار المثّالين . ويُعهدُ اليه فى «معهـد جربڤان» بمنصِب كبير، وما كان هذا ليسوغ لأجنبى قط لولا نبوغ مختار الذى أوفَى على كل تقدير .

ويشاء الله لمصر أن تنبعِث، ويشاء لها نهضة قوية يلتفت لها العالم كله، فتثور موهبة مختار هناك وتأبى ثورتها أن تهدأ إلا اذا كَشَفَت سرَّ أبى الهول الذى ظل محقونا فى أطْواء صـدره المقبوض آلافَ السنين، واذا أبو الهول ناكِسُ الرأس من وجد وأسىً على مصر الأسيرة العانية ، واذا أبو الهول يرفع رأسه وينبعِث، لأن مصر نهضت تفُكّ أغلالهـا لتسعى فى أرض الله سعىَ الأحـــرار .

وكذلك خرج تَمثـال «نهضة مصر» فتاة فلاحة تبعث أبا الهول فيتحفّز للوثاب، ويتهيأ للغِلاب .

وما كاد مختار يَعرِض تمثال تَمثاله فى «صالون باريس» حتى هُرِع اليه كبار رجال الفن وأقبـلوا على « المثّـال » المصرى بأتم الهناء والإعجـاب ، وتطايرت الأخبـار الى مصر فسُرهان ما اجتمع من شـبابها كلُّ نَدْب وطنىٍّ

نَجيد، وسرعان ما نَدَوْا بالأموال واستَنْدَوْا أبناءَ الوطن ليسجلوا «نهضة مصر» ويرفعوا تِمثال مختار ويرفعوا معـه اسمَ مواطنهم النابغـة مختار، فجمعوا آلافا من الدنانير اذا لم تُغْنِ في العمـل الجسيم فقـد مهّدت السـبيل لأن تتولّاه حكومة الشعب، ومن حق حكومة الشعب أن تتولّاه .

وقد مضى العمل في تمثال « نهضة مصر » جِدًّا ، بمعونة الحكومة وعَطف الأمة؛ وهو الآن يستشرِف بفضل الله للتمام .

واذا كان مختـار قد لقى بادئ الرأى تجنّيا وعنَتا من الدَّهْماء وأشباه الدَّهماء، فتلكم سنة الكَون فى هؤلاء ؛ وهل قام فى الدنيا مصلح إلا قاوموه واعترضوا سبيله ؟ وهل نبَغ فيهم نابغ إلا مَلَكهم الحسد من كل جانب فمضَوا يتنقَّصونه بكل ما أحرزوا من جهل وتضليل ؟ .

ولقد تظاهر الجهل والحسـد جميعا على تمثـال مختار ، أما الجهـل فمن أولئك « العلماء الأقطاب » الذين تراهم يقضُون بياضَ نهارهم وسوادَ ليلهم على مُتون القهوات العامّة ، أَكْفاء لأن يفهموا كل نظـرية، ويبُتّوا فى كل قضية ، بحيث لا تخفى عليهـم خافية من دقائق الفَلَك والطب والهندسة والسياسة وعلوم القانون وفن تعبئة الجيوش (التكتيك) وكل ما تنقطع دونَه جهود فحول العلماء فى جميع العالم ! ! . وأما الحسد فمن أولئك الذين يصابون بضَعف الهـمة وقوة الشهْوة، وهم يأبَوْن الا أن يكونوا عظاما إِذْ لم تُعِـدَّهم مداركُهم ولا مساعيهم فى الحياة لعظيم .

تظاهر هؤلاء وأولئك على مختار وعلى تمثال مختار فانطلقوا بكل ما فيهم من «ذكاء» و « إخلاص » يتنقّصونه ويتحيّفون من قَدره ؛ ومن الجهة « الفنية » ما شاء الله أيها « الجِدعان » ! !

وسار هـذا الروح الخبيث فى البلد تَعْضُده دسائس ممن أَدلَى اليهم الزمن « الحائر» بمناصب لها شأن فى بعض الحكم، ولها جميع الشأن فى أمر التمثال، فما زالوا يدافعونه ويعترضونه بألوان العوائير، ومختارٌ ساكن سكون الواثق بأن عبقريته وحدَها كُفءٌ لما أعد الحسدة وتفَيهَق الجهال ! !

وشاء الله أن تُقدَر هذه العبقرية قَدْرها ، وأن يقرّر مجلس النوّاب، بين التهليل والتصفيق ، فرضَ المال الضخْم لإتمام تمثال « نهضة مصر» وكذلك تمّ الانتصار لمختار، وان شئت قلت تمّ الانتصار للعبقرية الفخْمة على حسد الحسَدَة وعلى جهل الجُهال .

وتَظفَر مصر أخيرا بمثّال نابغة من بنيها ، وأولئك الذين لا يُطيقون أن يسمعوا مقالة الخير فى أحد من مواطنيهم، قد أمست أنوفهم فى الرَّغام .

وفى الوقت الذى كان يُنكر فيه عبقريّو « القهَوات » على مختار خَطَر فنه وخطر أثره . كانت تترادف عليـه الدعوات من أكبر معاهد الفن فى أوربا لتستثمر موهِبته فى عملها الجليـل إذ يأبى مختار أن يَنصرِف عن تمثـال « نهضة مصر» فى سبيل المـال وما هو أعز من المـال .

وحسبُه من الجزاء على هـذا التمثال ، أنه مخلد نهضـة مصر على تطاول الأعصار والأجيال .

فهناء ثم هناء «ياسِى مُخطار» !



?

الشـــيخ . . .[1]

ومالى لا أمزح وقد كان رسول صلى الله عليه وسلم يمزح، ولكن لا يقول إلا حقا، وسأمزح الليلة، وسأحاول ان شاء الله ألاّ أقول إلا حقا . سأمزح هـذه الليلة لأنى أجد فى نفسى غِبطةً ومَراحا ونزوعا الى المَزْح ، وسأفعل فى غير تطرُّف ولا عبَث .

على أننى لا أجتثُّ الكلام اجتِثاثا، ولا أُطلِق موضوعَ حديثى افتِلاتا ، وانما ألتمس له شخصِيةً أو شخصياتٍ جليلة عظيمة أخطأها الكُتّابُ وتجاوزها المؤرخون، وأخشى أن يتمادى الزمن فتَطوِى الأيام خبَرها، ولا تقدُر نواشئ الأجيال خطَرها، وهذا ظلم لهـا وللتاريخ معا .

صديق أو غير صديق أو هما معا، الأستاذ الشاب أو الكهل أو الشيخ أو كل أولئك فى وقت واحد، الشيخ أو السيد فلان ... !

وأنا أشهد أنه ما اطّلع على مجلسى إلا حلت له الحَبْوَة ، ولا جلس الىّ إلا آثرته بتكْرمتى ، ولا أرسـل يده الىّ إلا أسرعتُ بتقبيلها ، لأنى أرى فى الشيخ عظيما وان لم ير غيرى أن فيه عظيما .

هو شيخ طريقة،وهو على صداقته وملازمته لشيخ مشايخ الطرق لاترى، على مايزعم شانئوه، لطريقته فى سجلات مشيخة الطرق الصوفية عينا ولا أثرا !

(١) نشرت بجريدة السياسة فى إحدى (ليالى رمضان) سنة ١٣٤٣ هجرية .

ثم هو رجل جمع بين أقصَى مطالب الدنيا وأقصَى مطالب الدين، فتراه كما يَظهَر الأصيلَ فى حلقة الذكر يظهر العِشاءَ فى بار (أرستومين) !

ثم هو سـعدى، وعدلى، وحر دستورى، وحزب وطنى، واتحـادى، ومحايد، ومستقل، وغير هؤلاء جميعا !

ثم هو لا يَفْتُر عن أداء حقوق القصْر، ولا ينى عن التوافى فى كل موسم لدار الوكالة الانجليزية، ولا يترك جريدة السياسة إلا الى (بيت الأمة) !

ثم هو يُحسن العربية ويُحكم الانجليزية فلاتعرف إن كان غربيا مستشرقا أو كان شرقيا مستغربا !

ثم هو مصرى، وهو فى الوقت نفسه مَطَافُ الجاليـة الفارسية فى مصر يتحدّث على أمورها ويُدْلِى بُمهِمّها فى هذه البلاد، فلا تعرف إن كان عربيا مستعجما أو عجميا مستعرِبا !

ثم هو اذا تقفَّيت أصله وقَصَصْتَ منشأه ومَنْجَمَه رأيتـه من المنوفية، ومن الشرقية، ومن البحيرة، ومن الدقهليه، ومن الفايوبية، ومن الجيزة، ومن المنيا، ومن أسيوط، ومن جرجا، ومن قنا، هو من هؤلاء جميعا، وهو يلاغى بِلُغاهم جميعا، فترى فى لسانه لِين حديث أهل البحيرة، وجُشوبة منطق أهل الصـعيد، فتسمعه إذا نادى (محمـدا) قال (يامحمْ) وإذا عبَّر عن الفم، قال (الخَشْم).

هو ولا شك عصبة أمم تجول فى قفْطان وجُبّة !

لا أعرف رجلا يُحصى من أسمـاء الناس وألقابهم وكُناهم ومعـرفة من يلابس كل إنسان من أصدقائه وأصهاره وأحمائه مثل مايُحصى ذهن الشيخ.

وأُقسم لو استعانت به مصلحة الإحصاء إذ تُقْبل على إحصاء أهل هذه البلاد لتغنّت بعلمــه وذاكرته عن خمسة آلاف شيخ حارة وعمدة بلد وسِجِـلٍّ قديم فى الدفترخانة، وموظفٍ طوّاف فى القرى والدَّساكر لجمع المعلومات، وإثبات الأسمـاء والصفات .

واذا حضَرَكَ فى هــذا المقام أن الشياطين تتشكّل فلا يذهب عنك أن الملائكة كذلك تتشكّل، وأن أوليـاء الله يتشكلون، ولِلأقطاب والأَبْدَال، فى التشكل أحاديثُ طِوال !

وإذا كنا نحتفل فى هذه الدنيا بشخصية واحدة ونتّخذها موضعَ الحديث والتحليل والتمثيل فكيف بسبْع وثمانين شخصية قوية قد اتّسقت كلُّها لرجل واحد !

ليس على الله بمُستَنْكَرٍ * أن يجمع العالَم فى واحدِ

وأُقسم ثانيا لو أن صاحبنا قد نجَمَ فى عهد الجاحظ أو اطّلع عليه عِلمُ كارلَيْل لخُصَّت به الرسائل وأُفرِدَت له الأسفار، ولكن أنَّى لنـا جزالةُ قلم الجاحظ أو دقة ذهن كارليــل لنقولَ فى الشيخ كلَّ ما ينبغى أن يقال فيــه ؛ وإذا كنا عاجزين عن تَقَصِّى جميع عَبقرياته الحِسان ، فلا أقلَّ من أن نُلمَّ بفضائله فى ليلة من (ليالى رمضان) ! ...

شيخ السوق

لقد دُهِيَ هذا البلدُ بشيخ روميّ التَّبْعَة ، ألمانى الطَّلعَة ، انجليزى النَّزْعة ؛ له وجه كسَنام البعير ، ووجنتان كأنما استُعيرتا من نار السعير ، يَفرُق بينهما مَنْخِران غليظان يقذِفان بالحُمَم ، ويَروحان على جليسه بأخبثَ من ريح الرِّمَم . ودونهما فمٌ قد افتنّ الشيخ فى إحكامِ دِبَاغه ، وتجويد أصباغه ؛ فإذا راعتك منه حُمرة الشِّفَاه ، فاعلم أن ذلك من صنْعة « دلمار » لا من صنعة الله . وله عينان دَقَّتا عن الأنظار ، فلا تستكشفُهما العيون الا بمِنظار ؛ على أَنهما أبصَرُ من زَرقاءِ اليمامة ، وهيهات أن يُخطِئهما موقع الدِّرهم من هُنا الى يومِ القيامة . وله عنقٌ قد رَهّلتْ جلدَه السنون الطِّوال ، ولولا (البودرة) تُمسِكه لَسَال !

ولقد اطّلع الشيخ على السبعين ، ولكنه لا يرى شيئا من العاب ، فى أن يبرُز فى دَلّ الناهد الكَعاب ؛ فلا تراه الا مُرَجَّل اللِّمّة ، (مُهَنْدم) العمة ؛ يجول فى قَفطان كأنما قُدَّ من فِرِند سَيْف ، أو نُسِج من خيوط الطَّيف ، فترى أحمرَه يَسيل فى أخضره ، وأزرَقه يموج فى أصفره ؛ يترقرق فيه مثلُ العَسْجد المذاب ، أو شُعاعُ الشمس اذا تهيّأت للاغتراب ؛ وقد أمعنَت « الخيّاطة » فى تقوير أعلاه ، فانحسر من صدر الشيخ على مثل المرآة ؛ وقد أطلّ على حِفَافَيْه نَهْدانِ كانما قاما على حراسة هذا الغَدير الرقراق ، من أعين الحسّاد وشِفاه العشّاق ؛ ومن دونهما منطقة (حزام) قد

شُجِّرت بالأفنان والأوراق ، وحلّقت على جَدَاولها كلُّ سُجُوعٍ من ذوات الأطواق؛ وقد تأنّق الشيخُ به فى تكوير أردافه ، وتدوير أعطافه، فما تدرى، اذا مارأيته، أأنت فى (حضْرَة) شيخ عظيم ، أم فى مجلس غانية فى (الأُلدرادو) القـــديم ؟!

أما الجُبّة — وقاك الله الخبيث ، وعصَمك من فتنة التَّخنيث — فهى من (الموسلين) ، أو (الكريب چورچيت) أو (الكريب دىشين)؛ وأما ألوانها فالوردىّ ، أو البنفسجىّ أو (التانجو) أو (البلوكانار)؛ ولقد اختلط رداء الشيخ على العيون ، واستعصَى عِلمه على متناوَل الظنون؛ فما تدرى أيُجَبُّ فى عَباءة ، أم يُحلَّى على الناس فى مُلاءة؛ أما هذا الذى غاب عِلمه عن النفوس، فتفصيله عند مدام رُوا أو مدام كَلموس[1] .

(١) خياطتان شهيرتان .

تنبيـــه — وقع خطأ فى صفحة (١٨٢) تحت صورة الأسـتاذ مختار « التمثال » كلمة (قلدنى)، وصوابها (خَلَّدنى) . وفى السطر الأوّل من صفحة (١٩١) كلمة رسول، وصوابها (رسول الله) .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥١٤/١٩٢٧/٣٠٠٠)

